

رواية

عمرو علي العادلي

الزيارة

ما حدث لـ عمر سعيد إبراهيم

دار اكتب للنشر والتوزيع


الزيارة

الزيارة
ما حدث لـــ عمر سعيد إبراهيم
عمرو علي العادلي
رواية
تصميم الغلاف أحمد مراد

رقم الإيداع -2014/1810
I.S.B.N: 978-977-488-264-8

دار اكتب للنشر والتوزيع
OKTOB.NET
الإدارة 10 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور، المرج الغربية، القاهرة
المدير العام : يحيى هاشم

هاتف 01110622103 - 01147633268
E – mail :daroktob1@yahoo.com
دار اكتب للنشر والتوزيع : Facebook

الطبعة الأولى ، 2014م

الزيارة

ما حدث لـ عمر سعيد إبراهيم

عمرو علي العادلي

رواية



دار اكتب للنشر والتوزيع

إلى الدكتور على فرغلى

تكفى صداقتك عن نصف العالم

"أود من قرائى أن يسترخوا

أن يتابعوا القصّة

دون حاجة إلى كتابة الملاحظات

أو حفظ الأسماء والتواريخ

فإننى أعِدهم بصدق.

لن أختبرهم فيما قرأوه"

إى إتش جومبريتش

مؤرخ ومفكر إنجليزى

القسم الأول

البوّابة

(1)

قالت أمّي إن أبي يرقد هُنا.

لم يعد يفصلني عن المبنى إلا عبور الشارع، ما أن لمست قدمي الأرض حتى داهمتني هِمّة مفاجئة لعبور البوّابة. كانت بعض أشجار قليلة تنحني فوق حديدها وتُكوّن معبرا للسيارات والناس، تبدو المساحات المظللة مضيئة بشكل ما، الشمس تتخلل الأغصان والأوراق، تصنع نوافذ صغيرة يُرقّط ضوؤها الطريق الأسفلتى تحت قدمي. جئت إلى هُنا وكُلّي حيويّة وأمل فى التعرّف على أبي، قالت أمّي أيضا إنه شخص فى الخمسين ويُدعى سعيد إبراهيم.

بالأمس، كانت أمي تحتضر، راحت فيما يشبه الغيبوبة، اللحظات التى تسبق الموت ليس من الضرورى أن تكون هامة، عند توهان العينين وارتجافة البدن، تخرج الحروف مبتورة لا تُفضى إلى كلمات، ولا يُفهم منها قصد، لكن على العكس من ذلك كانت أمي؛ تكلّمتْ كلاما مكتملا ومفهوما، بل واسترسلت فى سرد الحكايات واحدة تلو الأخرى، حتى ظننتُ أنها أبدا لن تموت، استحالت فى هذا الوضع لمادة خام يمكنها وحدها أن تغزل العالم فى ثوب جديد.

غابت أمّي فى وجْد من الصعب أن تصفه الكلمات، كانت كأنها تصطاد كائنات من أعماق محيط، ذهبت لمسافات بعيدة لم يرتدها أحد

من قبل، طالت الفترة الزمنيّة بين الغرغرة وما اعتقدتُ بأنه طلوع الروح، تباطأ الكيان الشفاف عديم الوزن حتى يعطى فريسته الفرصة كاملة لتقول ما تريد، وأن تعترف بما حدث بالفعل، فلا وقت لديها لتصويب الأخطاء فيما التقطته آذاننا، كانت فى وضع يصعب فيه الكذب، لا ترانا بشكل كامل، أنا وجدتى، ربما كنّا بالنسبة لها أشباحا تتجوّل حولها بلا صفة، ولا أبعاد، فقط كانت منشغلة بما تود أن تنقله إلينا بأقصى سرعة ممكنة.

فى هذه الأثناء، كنتُ مفتونا بتجربة الاحتضار، أتابع تطوراتها من بعيد، نسيتُ لثوان أنّى أقف أمام أقرب المخلوقات، للحظات، عاتبتُ نفسى على ذلك، كنتُ أراها –بعيدا عن أنها أمى– كائنا يعافر من أجل بقاء قبس منه فى أدمغة الآخرين، تنقل الرسالة لأشخاص أفضل منها حالا، أو بالأدق، سيبقون بعدها ولو قليلا من الوقت.

جلستْ جدّتى على حافة السرير، رفعتْ ذراع أمّى الهامدة فى تقليد ساذج لحركة الأطباء عند اختبار الوفاة، فحرّكتْ أمّى أصابعها ببطء. كانت تصرفات جدّتى متناسبة مع شخصيتها تماما، فقد تخطّتْ الثمانين وأصبحت تجد مَنْ يُبَرّر ويدافع عن كل ما تفعله. دارتْ حول سرير أمّى، هزّتْ العمود الحديد كما لو كانت تقف تحت نخلة وتنتظر سقوط الرطب، دبّتْ همّة مفاجئة فى حركتها، وكأنّها فرحانة بالحالة التى وصلت إليها ابنتها.

بالأمس، حين تركتُ أمّى، تركتُ معها بيتنا القديم، وتحوّل هذا الأمس إلى ذكرى طويلة تبتلع كل ما فات وتعيد تشكيله من جديد،

ذكرى قادرة وحدها على إنعاش الأحداث ورسم المشاهد ونثر الروائح على الأماكن والناس، حتّى تعطى انطباعا، ولو زائفا، بأن كل ما حدث يمكنه الحدوث مرة أخرى، برغم تشوّشه فى دهاليز دماغى، كفيلم لم يكتمل تحميضه.

عندما أصبحتْ أمّى تائهة بين الذكريات وشطحات الخيال أكّدتْ لى أن حالة أبى تسوء يوما بعد يوم، وعلىّ أن ألحق به فى آخر أنفاسه، نصحتنى بأن أزوره وأتعرّف إليه قبل فوات الأوان، حتى ولو لم يتعرّف هو علىّ.

لم تُذكر سيرة أبى كثيرا أمامى، لا يهم ذلك، فسيرته لا تعنى لى الكثير على أيّة حال، وكلمة "بابا" مفتقدة من قاموسى اللغوى منذ وعيت، لم أره ولو لمرّة واحدة، ولا حتّى عن طريق الصور، لم يكن له فى بيتنا أثر يذكر، أصبح بالنسبة لى كائنا متوقّعا، يمكن أن يصبح وحشا كاسرا، ويمكن أيضا أن يكون فراشة رقيقة.

كنتُ متلهّفا لرؤية شخص أنتمى إليه ولم أره أبدا، كانت أمى تقول "إن الجائع لا يدقق كثيرا فى الطعم"، وأقول على نفس القياس "إن المتلهّف لا يدقق كثيرا فى أسباب لهفته"

اسمى المكتوب فى البطاقة "عمر سعيد إبراهيم"، كان سعيد إبراهيم تكوينا خالصا لصالح الحكايات، لذلك يجب علىّ أن أُجمّعه من الخيال، أتوقّعه، ولكنّى فشلت فى توفيق ملامحه من الشتات كل مرّة. على أيّة حال، أنا لا أؤمن بأن الأب يشارك الأم فى الإنجاب، ولكنه فقط

يُسلّمها المفتاح لتكون أُما، ثم ينصرف لحاله، وتفتح هى الباب بعد ذلك وتُشكّل وحدها ابن حياتها.

قبل أن تموت أمّى أعطتنى ساعة، قالت إن أبى ورثها عن الأسلاف، وككل الأشياء المتوارثة، كانت تحمل قيمة إضافيّة لكونها مجرد ساعة، لها ميناء باهت ومرقّط، كما لو أصابه البَرَصْ، تتشنّج عقاربها أثناء الدوران، ولها أستيك معدنى مُقسّم لحلقات مفصليّة على شكل جلد ثعبان، لا حجر بطارية يُحرِّك تروسها، ولا شحن بلف زمبرك، كانت تعمل بنبض القلب. قالت أمى وهى تمد يدها بالساعة:

"خذ. طالما قلبك ينبض ستظل تدور. لا تُفرّط فيها مهما كان الثمن"

وبما أن الساعة فى نظرى لم تكن تساوى أى ثمن فلم أُعقّب على كلامها، أدخلتُ كفى فى الأستيك وأغلقتُه على معصمى. ربما ستعيننى عقاربها المعوجّة على رحلتى القادمة. لم أكن قد سمعت من قبل عن ساعة تعمل بنبض القلب، احتفظتُ بشىء آخر لم تعطه أمى لى، صورتها، كارت أبيض وأسود فى حجم الكف. كانت ملامحها المتبسّمة هى مؤونتى الحقيقيّة التى أعانتنى على خوض مغامرة المجىء إلى هُنا.

كنتُ أُدقق النظر فى ملابسى بين الحين والآخر، قميصى الكتّان اللبنى له زراير مربّعة شفّافة، وبنطلونى الجبردين بكسرتين متساويتين وكُبشة داخليّة، لابد كُبشة، وجيوبه معمولة من قماش ثقيل مخصوص. عند زيارة أبى، لم آخذ معى علبة شيكولاتة ولا كيس

فاكهة، لكنّي اشتريت بروازا فيه لوحة لفلاّحة تحمل فوق رأسها "بلاّصا"، فقد كانت لأمي روح فنّية تحس بالأشياء، وترى عروقا خفيّة فى الجمادات يتدفّق الدم من خلالها، وكانت أيضا ترسم الحناء وتغنى المواويل وتدق الطبل، وبما أن الطيور على أشكالها تقع، فلا بد سيكون أبي على نحو ــ ولو قليلــ من ذلك.

كان مجرّد تصوّرى بأن لى أبا يُشعل بداخلى شحنة من الشجون، نبت أبي أولا فى الداخل، ثم كل ما تلى ذلك شكّله الخيال. بدأتُ رحلتى وأنا أحمل فى يدى رواية لم تكتمل، وفوق كتفى تستقر حمّالة شنطة خفيفة فيها مستلزمات يوم واحد، حذائي الرياضى وبنطلونى الجينز أيضا، كانا يدعمان الإيحاء بالحيويّة وتدفّق روح الشباب فى حركتى وتصرفاتى، حرصتُ على أن أبدو لأبي شابا جاء ليتحمّل المسؤوليّة كاملة أثناء مرض أبيه، كانت ملامح الناس من حولى شاردة بشكل ما، للحظة خاطفة، رأيتُ نفسى منتميا لجنس أرقى منهم جميعا، كأنّهم أسلاف وأنا النسخة الحديثة من نسلهم، لم أتوقّف أمام هذا التصوّر كثيرا، تجاوزته لأنه تشكّل فى لحظة غرور عارضة، تخطّيته لأرى بشكل أوضح الناس والأشياء من حولى. خلف البوّابة يقف رجال أمن عابسون، يلبسون قمصانا بلون السماء وبناطيل بزُرقة كالنيلة، حليقو الذقون خفيفو الشعر، يتلفّتون وهم يبحثون عن سلطة يفرضونها على أى كائن، ينظرون فى تصريح الزيارة مرات وكأنهم وكلاء نيابة يفحصون أدلّة جريمة.

اجتزتُ البوّابة بدون استفسارات، فى يدى تصريح الزيارة المختوم، دخلتُ وشُحنة نشاط تجتاحنى، بعد أن عبرتُ ردهة طويلة التظرت أمام مصعد عطلان، لم أتوقّف أمامه كثيرا، صعدتُ السلالم

وملامح أبي المتخيّلة تتمثل أمامي بأطياف متنوعة. يأتيني في الأحلام على عكس الصورة الخرافيّة التي ثبتّها في عقلي، كان يقف باهت الهيئة صموتا، عابس الملامح ولا يجيد إلا إلقاء الإرشادات والأوامر، ثم ينصرف، ولكنّي لا أثق في الخيالات التي تتشكّل عند بوّابة الأحلام، لذا، أطلقت العنان لخيالي كي أتقبّل أبي على أية هيئة.

لقد جئتُ إلى هنا بدافع وصيّة واضحة لا لبس فيها، قالت لي أمي وهي تحتضر، بينما أرسم أنا على أصداف البحر:

"لم يعد لأبيك غيرك. اذهب إليه ووِدّه"

وقالت أيضا، إن أبي كان له أصدقاء كثيرون منذ سنوات بعيدة، أيام ما كان مكتمل الصحة والبنيان، أمّا بعد العطب المتوالي لأجهزته التي تتفاعل مع الحياة فقد تبخّر أصحابه المزعومون، وأصبح عليّ أن أزوره ربما لأساعده على الاحتضار هو الآخر، ولكنّي لا أعرف طبيعة حالته بالضبط، ولماذا يرقد في المستشفى؟

تسرّبتْ روائح مختلطة تزيد من سخونة الجو، تصببتُ عرقا برائحة البيتادين ومواد التعقيم وعيّنات الدم، واستمعتُ لآهات من كل شكل ولون؟ ولكن كل ذلك يهون ما دُمتُ سأجلس بجوار رجل قالت أمي إنه واضع بذرتي، أيام أن كان باستطاعته نثر البذور

سألتُ عنه ممرضة بدينة تدفع "ترولليي" صغيرا معبأ بالأدوية والشاش فقالت: مؤكّد أنه يرقد في العنبر الأكبر بقسم الرجال، وقالت أيضا إن بالعنبر ثمانية أسرّة وثمانية مرضى بأوجاع مختلفة وقصص متنوعة.

فى الدور الرابع تلتصق نوافذ العنبر بمئذنة مسجد صغير، ولا يقف على بابه أحد، بعد قليل خرج رجل قصير من العنبر، كان يلبس عفريتة ميكانيكى متسخة، عليها من الخلف "بادج" متهتك وحروفه تائهة فى لُطع الشحم، اقترب منى ورفع رأسه عاليا حتى يرانى، ثم سأل:

– هل تبحث عن أحد؟

– أبحث عن أبى.

قلتُ، فضحك القصير، اهتز خرطوم قسطرة فى يده الصغيرة، جلس على منضدة طويلة خشبها مخلخل فجلستُ بجواره، وضع الخرطوم على كتفه كالحبل وقال:

– معك سيجارة؟

بعد أن دخنّا السيجارتين وضحت ملامح القصير أكثر، كانت له عين مفنجلة وعين مواربة بها حَول. ولم يرد.

جاب الكلام بعضه مع الدخان، نعست سيجارته بين أصابعه وتنهّد، وعرفت أن اسمه حسن، لم يزد على ذلك، عندما أردتُ الاستفسار عن باقى اسمه صمت قليلا ثم رد:

– أنا معروف فى المستشفى بالكامل. يكفى أن تقول حسن. اطمئن. لا يوجد هُنا حسن غيرى.

لم أطمئن، ولم أكمل معه الحديث. نزلت من على المنضدة وذهب حسن لحاله، كرهت منضدته عندما عرفت أنّه سحبها من مدرّج تعليمى، وأن هذه الطاولة الكبيرة كانت مخصصة لتشريح جثث من قضوا فى العنابر، أو هَلَكوا فى غرف العمليّات.

ابتعدتُ عن هذا الغريب الأحْول، بحثتُ عن مكان للجلوس، "حصيرة الصيف واسعة" كانت أمّى تقول دائما.

لم أعثر على أى معلومات عن أبى حتى الآن. حاولت تفحّص النزلاء بترو، رأيتُ مرضى عاجزين عن ترك أسرّهم، أو حتّى تغيير وضع رقدهم. لمحتُ حسن بجوار الشبّاك يحاول إغلاق ضلفته قليلا، ثم نظر إلىّ وابتسم، رمى عُقب السيجارة بعد ما سحب منها النفس الأخير وشفط جزءا من الفلتر.

أكملت بحثى فى الملامح، ربما أجد عينين يطل منهما بريق يشبهنى، كانت أعين الراقدين متعبة ومنتفخة من تكرار النعاس، يلتصقون بأسرّهم كأنهم أصبحوا جزءا منها، يتأوهون كلّهم باستثناء شخص واحد، رجل له بشرة شاحبة، بلون الصوف الطبيعى، يكبس فى رأسه زعبوطا مقلّما من القطن، يندفس ولا تظهر منه إلاّ عينان صغيرتان، يتوسطهما أنف كبير نسبيا. لا يمكننى تخيّله أبى، حاولتُ الانتقاء قدر استطاعتى، كنتُ أجنح لأختار الصنف الممتاز، فعندما يكون لدينا الاختيار نرى دائما أننا نستحق الأفضل.

سمعتُ حسن من خلفي، كان صوته قد حفر طريقه التدريجي للتميّز في أذني:

- هل تعرف أي شيء عن أبيك؟

- كل ما أعرفه أن اسمه سعيد إبراهيم.

أجبته وأنا أتخيّل بيننا حوارا مُطوّلا، ولكن حسن انصرف ليُكمل نقل مستلزمات طبية إلى العنبر، لم يكن توقفي عند حسن بسبب قصره وحَوَله وردوده المقتضبة فقط، ولكنّه كان يتعامل كممرّض وهو يلبس زيّا غير رسمي، وغير نظيف، لم يكن أحد يعترض على ذلك، ليس هذا فحسب، ولكنّه أيضا لم يكن يلتفت للأطباء، ولم يتحدث كذلك إلى عمّال النظافة أو الأمن، باختصار، كان يمر أمامي كطيف مرسوم على الجدران، لا يسأله أحد عن شيء، يبدو أنه كان يملك سطوة ما.

سمعتُ سائق الميكروباص قبل وصولي إلى هنا يتحدّث عن أشياء غريبة تحدث في المستشفى، وعلى غير ما رأيت بعيني، قال إنه مستشفى نظيف لأن الحرّاس الجدد تولوا أمره منذ شهرين تقريبا، لم أتوقف عند كلماته ولم أستفسر عما يقصده بكلمة "الحرّاس" لم تكن الكلمة بلا معنى، إذ كان في استيعابها مشكلة بسبب وفرة المعاني المفسّرة لها.

تسلل شجر باسق السيقان تطل أوراقه عبر النوافذ، حامت أسراب طيور صغيرة سوداء حول مبنى المستشفى وهي تصيح بصوت

عال لا يناسب طيورا بريئة ترفرف فى السماء. كانت الحرارة شديدة والهواء متوقّف عن العمل، وحسن يهش عن وجهه الذباب ويُروّح كفه بلا جدوى.

لمدّة طويلة احتفظتُ بصورة لأمى فى خيالى، حاولتُ كثيرا أن أحتفظ لأبى بصورة مماثلة وفشلتُ، تخيّلته وسيما بشكل ما. وتخيّلتُ أمى وقد ولدتنى بمجهودها الخاص، أو بمعنى أدق، تَحملتْ نزق أبى ونزواته حتى أتت بى، بعد ذلك لم يعد له أى لزوم، فقد أصبحتْ هى أما. وفشل هو فى ذلك.

لم تتركنى حماسة الأطفال، كانت حماسة ناقصة، تفتقد لعنصر الطمأنينة، فهناك تضارب بين ما أحمله من أفكار وما أنا ذاهب إليه، كانت زيارتى للمستشفى تتعلّق بالمستقبل، فيما أفكارى التى أحملها كلّها متمسكة بالماضى، حاولتُ قدر استطاعتى العيش فى زمنى المضارع لكى لا يفلت منّى الحدث، أو يهرب، ولكننى كالعادة، فشلتُ فى الإمساك بأى شىء.

حتى هذه اللحظة وأنا أرى منظر الأسرّة من بعيد، لا أمتلك الشجاعة الكافية لدخول العنبر، ربما بسبب رائحة المرض التى تخرج من كل شىء، بَدءا من الأطباء والمرضى، ومرورا بالحيطان الرماديّة الكئيبة والعربات الصغيرة المخصصة لحمل الأدوية، وليس انتهاء بحسن وخراطيمه الكثيرة. كنت أرى حواف الأسرّة دون رؤية الراقدين فوقها بشكل يسمح لى بالتأمّل الكافى. حاولت ضبط البرواز الذى ترقد فيه الفلاّحة وتحمل فوق رأسها بلاّصا عدّة مرّات، وكذلك

حاولتُ الحفاظ على الرواية التى فى يدى من بلل العرق. سألنى حسن نفس السؤال للمرّة الثالثة:

– هل تعرف أى معلومات عن أبيك؟

– أعرف فقط أن اسمه سعيد إبراهيم.

كانت الساعة الثالثة والنصف حسب توقيت ساعتى أم عقارب التى قالت أمّى عنها أن الأجيال تتوارثها. خرج كل من كانوا فى العنبر عدا المرضى، فسألت عنهم حسن:

– من هؤلاء؟

تأمل البرواز المغطى بورق جرائد تحت إبطى. ثم عوج رأسه محاولا قراءة اسم الرواية التى أحملها، ولمّا فشل لعدّة مرّات نظر للناس الذين يتدافعون من حولنا وقال:

– هؤلاء هم الحرّاس الجدد.

* * *

منْ يُصدّق أنّك كنتَ تعيش مع أمك وجدّتك؟ أمك طريحة السرير مريضة، وجدّتك تنتمى لأسلاف أصبحوا جميعا ترابا، تخطّت الثمانين وأصبح من الصعب إقناعها بأى شىء مما يجرى بالقرب منها، فتتصور دائما أن كلّ من حولها يطمعون فيها ويكرهونها، بالرغم من أن البيت الذى تعيشون فيه كان إيجارا والعفش لا يأخذه بائع روبابيكيا ببلاش، لم تصدّق جدّتك أنّك لا

أنت ولا أمك تكرهونها، ولكنّها هى التى كرّهتكما فى العيشة، بحركتها المتشنّجة وحدبتها المعروفة، وظلها الصغير الذى يتحرّك ملاحقا لها، وأحيانا يسبقها، يراوغكما حسب موقع الجسم الأصلى من الضوء.

كانت جدتك فى الآونة الأخيرة تزغر لذراعك وهى تتطوح فى الهواء، تُديم النظر إليها فى صمت، لا يمكنك القول أنها نظرة إعجاب، ولكنها كانت متابعة دقيقة لسير الحركة، كانت تتأمّل التطويحة كما لو أنها تتابع حدثا مهما، بعد ملاحظتك لذلك عدّة مرات كنت تعيد النظر لذراعك، لعل فى حركتك خطأً ما، فتجد كفاك كما هى، خمسة أصابع لا زيادة ولا نقصان، والكف ملتصقة برسغك، والرسغ يأخذ بداية حركته من عظمة الكوع، تماما كأى إنسان عادى. تقدمتْ جدّتك فى السن وظلّت عيناها براقتين، أمّا ملامحها، فكانت تشبه تماثيل الخشب الفرعونيّة.

ولكنّك ذات مرّة لاحظت شيئا جديدا، كنتَ تحمل شنطة ثقيلة منذ أيام، ومن فرط ثقلها تعلّقت بها ذراعك، تجمّدتْ حركتها، لم تلتفت لك جدتك، ولكن عندما أنزلت حمولتك وبدأت ذراعك فى الحركة عادت نظراتها المريبة كما كانت.

هذا المرض الغريب أصابها منذ عدّة أشهر، لا تعلم إن كان يصلح تسميته بالمرض أصلا أم لا، كانت تتربّص بذراعك وهى تتطوّح فى الهواء، ثم تنقض من الخلف وتقضمها، عضّة قويّة تنقلب

بعدها أصابعها لخطاطيف فى صلابة حوافر، ولّما فعلتْ نفس الشىء مع أمك المريضة توجّستَ من تركهما معا، كنت كلما ذهبت لشراء شىء من البقّال أو الخضرى لابد أن تجد مصيبة فى البيت عند عودتك، كانت جدّتك تركض خلف فريستها —التى هى دائما أنت أو أمك— تنقض على أقرب ذراع لفمها وتكاد تلتهمها فى وحشيّة، تقضمها بكل ما أوتيت من عزم النواجذ وإصرار الفكّين، أصبحت ذراعاك وذراعا أمك دائما فيها خرابيش واضحة وعضّات محفور فيها مقاس أسنانها، تعلّمتَ بعد تكرار ذلك بعض الاحتياط، فلا تكلّمها وأنت تُعبِّر بأى إشارات جسديّة، بل كنت تبتعد عن فمها الطائش قدر استطاعتك. ولّما استشرت فى المسألة رجلا مسنّا ومهيبا كان له بعض التقدير فى مدينتك الصغيرة، قال كلاما لم تستخلص منه إجابة شافية، قال إن جدّتك عندها ترسبات أوّليّة ورثتها عن أسلاف يبعدون عنكم بآلاف السنين، ربما كانوا رعاة إبل وأبقار بدائيين، وربما كانوا غنّامين أو صيادين، المهم فى ما قاله أنّ هؤلاء الأسلاف كانوا ضد كلّ وافد أو جديد يختلف عما يعرفون، ظلّوا كما هم لآلاف السنين، لا يريدون مساعدة من أحد، حتى تقدمتْ عليهم جميع الأمم. وعندما تم اختراع حروف الكتابة لم يعترفوا بها، وظلّوا يرددون أناشيدهم الشفاهيّة باستمتاع، أناشيد الرعاة والصيادين، وظلوا متخيلين أن الشكل الأمثل والأجمل للإنسان هو أن يكون بلا ذراعين، ولابد من اختفاء هذين النتوءين بأى حيلة، وكانت طريقتهم المثلى فى تطبيق قناعاتهم هى أن يأكلوا أذرع

بعضهم البعض، حتى أصبحوا مشهورين بين جميع القبائل باسم "الصخور" ظل الأطفال بعد ذلك يولدون لعدّة أجيال على الشكل الجديد، بلا ذراعين، فقط عظمة صغيرة مقببة عند الكتف لتدلّ على مكان شيء ما انقرض. أجبرهم الشكل الجديد على تدريب الأولاد والبنات الصغار على تمرينات القدمين، وأصبحت أقدام هؤلاء الأسلاف المشهورين بـ"الصخور تشبه جذوع الأشجار المُعمّرة، صمّاء وعروقها كأوتاد صغيرة. وبعد أن أصبحت هذه القبائل القديمة ترى أن وضعهم هذا هو الطبيعي؛ أصبحوا يرون فى الآخرين ذوى الذراعين عيبا جسيما، فلا يلمح أحد منهم ذراعا تتطوّح فى الهواء إلا وقام بالتهامها، وكان ذلك الفعل فى تلك الأزمنة البعيدة يعتبر عملا بطوليا، حتى أن زعيم القبيلة كان يعطى مكافأة كبيرة لمن يأتى له بذراع واحدة، حتى ولو بدون صاحبها. سألت الرجل المسن فور الانتهاء من الاسترسال فى أساطيره، هل لهذا المرض علاج؟ فى البداية، شرح طريقة الوقاية وثقة بالغة تنضح من قسماته، وبما أن جدتك لم تكن تخرج من البيت أبدا، فإن ما يثيرها ويؤجج شهوتها القديمة فى القضم هى أربع أذرع فقط، ذراعاك وذراعا أمك، طلب منك أن تربط ذراعيك بحبل خلف ظهرك، ثم ترتدى فوقها ملابسك، وكأنك أصبحتَ بلا ذراعين، وبدأتَ فى إقناع جدّتك بأنك قد فقدتهما، صدّقتكَ بسهولة، وبالمثل لابد أن تفعل أمك، وعندما نفذتما ما قاله الرجل جاءت الفكرة بنتائج إيجابيّة، فقد هدأت جدّتك وقلّ حماسها كثيرا نحو التهام الأذرع، ولكن ما

حدث بعد ذلك كان شيئا غريبا، فبعد مرور ثلاثة أيام على هذا الوضع الصعب، بدأت تشعر بتنميل فى ذراعيك وخدر، ومع مرور الوقت لم تعد تشعر بهما نهائيا، كأنهما مستلزمات تم الاستغناء عنها، والأغرب أن جدّتك التى فعلت كل ذلك من أجلها ما زالت تستخدم ذراعيها فى الطهى والتشويح، وفى الضرب أيضا.

(2)

كلما توغل الغروب كانت جدران المبنى تزداد كآبة، ظلال الأشجار تبدو مشاركة فى العتمة بشكل ما، والبوابات الكثيرة أيضا، تُضفى غموضا محتملا على المبنى الواسع، تعانق ظلّها الملقى على الأرض، وتتشابك مع ضفيرة سميكة من ظلال أعمدة إضاءة بعضها لا يُضىء. لم يكن أمامى أحد أتحدث إليّه سوى حسن، أو بشكل أدق، هو الوحيد الذى كان ينفحنى سؤالا قصيرا وهو داخل أو خارج. يرد بإجابات غير متوقّعة على أسئلتى. انشغلتُ لمدّة بالأجواء ونسيتُ مَن جئتُ مِن أجله، أبى. هممتُ بدخول العنبر والبحث فى كل الموجودين عن عجوز يشبهنى أو أشبهه، لم أكن أعرف سنة ميلاده حتّى أخمّن تجاعيده وأتخيّل انحناءته. لمح حسن فىّ مسًا من حيرة، فاقترب منّى وقال بصوت به مسحة من طيبة:

– يمكننى أن أتعرّف على أبيك بلا عناء.

– كيف؟

– تعال معى.

سرنا فى طرقة طويلة، مررنا بلوحة مكتوب عليها اسم فلان باشا زوج علاّنة هانم وبنتهما "المدموازيل" ترتان، كانت أسماؤهم مكتوبة على اللوحة من أجل تبرع هؤلاء الثلاثة بقطعة الأرض التى شيّد

عليها المستشفى. لونيًا، يتّحد الغبار مع عروق الرخام الأبيض المجلّدة به واجهات المستشفى من الداخل. اجتزنا اللوحة الرخامية، مررنا على غرفة ممرضات يلبسن زيا له غطاء رأس كبير كأذن فيل أبيض، يجوبن المكان ببطء، كانت تميزهن جميعا بدانة مفرطة، تهتز عربة الأدوية التى يدفعنها فتتفكك أجسادهن بشكل غير أنثوى بالمرّة، يتبعهن رجال تتوزّع على ملامحهم صرامة بغير عدل، فالفم مبتسم وقرفان فى الوقت ذاته، والعينان أيضا، تضيقان بامتعاض، ثم تبدو البصّة كأنها تأملات فكريّة. كان بينهم رجل عجوز يبدو من تكشيرته أنه قائدهم، نجح الزمن فى رسم "سنبوكسات" بالطول والعرض والورب على جبهته.

الطريق لم يكن طويلا، ولكنّى كنت أتوقّف أمام مشاهد تتميّز بعشوائية كتلك التى تُنسج منها الأحلام، يبدو الشكل فى الأول عَرَضيا وغير مقصود، فأرى الطرقة الفسيحة وقد غطّتها ملاءات ملوّثة ترقد فوقها الممرضات لا المرضى، ثم أرى المرضى نائمين على البلاط ويتوسّلون للأطباء، وأمرُّ بمرآة أرى فيها نفسى كأنّى كبرت بدون سابق إنذار، ولم أكن طفلا فى يوم ما، ثم يتشكّل وعيى عن طريق حزمة أمنيات حددتّها أمّى، وبعد أن أصبح بإمكانى تحقيق ما أرادت ماتت، تركتْ لى الحيرة فى اختيار أب يناسب طموحاتى وخيالى، وذلك بالتأكيد لأحلّ محل أبى الذى حلّ بدوره محل جدّى. تركتُ المرآة أو تركتنى، وتذكّرتُ أنّى جئت إلى هُنا باحثا عن أبى.

كلما نظرتُ للساعة أم عقارب يدور بى الزمن لفّة دائرية واسعة، أكاد أتوه من مركزه، أشعر باحتياجى الدائم لتواريخ وأرقام حتّى

أتذكّر الأشياء. رائحة الصابون المعطّرة التى كانت تفوح من ملابسى تلاشت وحلت محلها رائحة عرق خفيف، سرعان ما أصبح لا يطاق مع الحركة المستمرة، وأسنانى التى كانت تلمع، تذوقتُ طعم صدأها بطرف لسانى.

ضوء بارد مسّنى، بالأدق، لسعنى وأنا أسير بجوار حسن، كانت الشخصيّات المتجوّلة من حولى تبهت، تغيب ملامحها وتتلاشى، كخطوط بيضاء مرسومة على ورق شفّاف.

مررنا أنا وحسن على مغسلة كبيرة تغسل ما يُسبل على الأبدان، وبجوارها مغسلة أخرى لكل ما ترتاح عليه الأبدان، وبعد قليل قابلتنا الأبدان نفسها على هيئة بشر تغلغلت فيهم العلل المشكّلة، تعشش الأمراض فى خلاياهم، وتضعهم إرادة أشخاص غيرهم على حافة صندوق المغامرات.

وعدنى حسن بأنّى سأتعرّف على أبى بسهولة، وكنتُ أرى العكس، فالرحلة بدأت بطرح أسئلة كثيرة دون توفّر إجابات بنفس الكمّية، لم يمنعنى ذلك من تخيّل وجود بدن واقعى لاسم ظل يتردد بلا صدى لسنوات طويلة، سيصبح اسم أبى "سعيد إبراهيم" حقيقة لها لسان وقدمان، ذكريات وأحلام، فى البداية، حدستُ المغزى الذى يمكن أن يطرحه الاسم.. سعيد إبراهيم، وأنا.. عمر سعيد إبراهيم، تأملتُ الاسمين، كان الأول ينتمى للماضى، والثانى الذى أُضيف اسمى فى أوله ينتمى لى، يخصّنى بشكل كبير، هكذا رأيتُ اسمى الثلاثى، يمتطى أبى حرف الياء وهو ممسك بوتد الدال القصير، أما جدّى فيتخفّى بين دائرتى الهاء الصغيرتين يرمق الألِف بلؤم، بينما انزلاق

الراء فى اسم جدى يشبه الانزلاق فى آخر حرف من اسمى. قبل استكمال تشكّل الوعى سُبِلَ على كل واحد اسمه كملابس زائدة وانتهى الأمر

طرقع حسن بشبشبه الزنوبة على البلاط، يبدو الصوت واضحا كحدوة حصان تقرع الأسفلت. حاولت تجنّب جميع الموجودين وعدم الانشغال إلا بالبحث عن أبى، تبخر المرضى والممرضات فجأة، ولم أجد فى الطرقة الطويلة إلا أنا وحسن فقط.

دخلنا مكتبا به دفاتر متراكمة ومتربة، وأمام تلّ ملفات رجل يضع خلف أذنه قلما بدون لبّسة، تتخفّى ملامحه تحت نظّارة كبيرة، عدستاها فى حجم علبتى تونة، التفتَ لحسن، عندما رآه وقف وفى يده بقايا ساندويتش فول، وفى عروة قميصه تلبد حبة سليمة لها ذيل من طحينة، ثم قال:

– أى خدمة يا حسن؟

– اكشف لى عن اسم سعيد إبراهيم.

تناول الرجل دفترا بيده المتوقفة عن رفع الساندويتش، أخذ يفرّ صفحاته بيد، ويده الأخرى تضع طرف الساندويتش تحت أسنانه، توقف عن المضغ وتأمل الاسم مرارا ثم نظر لحسن بشكل مرتبك وأغلق الدفتر فسأل حسن الرجل:

– الاسم مشطوب؟

– نعم.

- كُلّه؟

- باق حرفان فقط.

أطرق حسن قليلا كأنّه يتأمّل حذاؤه، ثم خرج، مشيت خلفه وسألته:

- هل عرفت أبى؟

- عرفته.

اجتزنا الممر الطويل فى الاتجاه العكسى، وقبل أن نصل للعنبر بقليل سألنى حسن إن كان قلبى جامدا؟ فأجبته بما يسمح برسم صورة أفضل عنّى فى مخيلته، ولمّا أصبحنا أمام العنبر قال حسن: أبوك هو أول سرير وأنت داخل العنبر على الشمال، وقبل أن أخطو خطوتى الأولى جذبنى من ذراعى وقال:

- ولكن تذكّر.

- أتذكّر ماذا؟

- لقد قلت إن قلبك جامد.

* * *

لم تعد جدّتك فى حاجة لمساعدة، فالكلمات التى قالها الرجل المسن لم يكن لها إلاّ معنى واحد تقريبا، أنها ستحزم أمتعتها قريبا وتصعد حيث المسافات التى لا يمكن قياسها، أصبحتَ على أتم استعداد لاحتضار جدتك، لم تكن تخشى الموت، فهو غير مُعدٍ، كنتَ تساعدها على اجتياز مرحلة الاحتضار، تتعاون معها فى ذلك

قدر استطاعتك، اشتريتَ لها الكفن ووضعته فى الدولاب، ولكنّها فور رؤيته أحضرته ومزّقته أمامك وقالت:

لو جئت بهذا الشيء هنا مرّة أخرى فسأكتب عليه اسمك بالحبر الأحمر.

اشتريتَ لها كفنا آخر، لففته فى مصليّة مركونة فى الدولاب. لمّا تأكدتْ من أنكما تأخذان التدابير توقعا لموتها أصبحتْ أشدّ شراسة، تحولت معاملتها لشكل شبه عسكرى، تُلقى أوامرها على مسامعكما ولا تقبل إلاّ الطاعة العمياء:

حط الحصير فى الشمس.

حاضر.

لّم البيض من تحت الدجاج فى العشّة.

حاضر.

ارم قشر البطيخ للعنزة المربوطة.

حاضر.

تمل من الرد المستمر بكلمة واحدة:

حاضر. حاضر حاضر.

كلمة تيبّست فى فمك، لا تناسب الطاعة بقدر ما تناسب رغبتك فى صمت جدّتك نهائيّا؛ فى غلق فمها المظلم للأبد. موافقتك على كل طلباتها المجهدة لم تجعلها هادئة، كانت ردودك

متسامحة برغم صوتها المرتفع، فعندما تصيح كانت تفقد السيطرة على ضبط مستويات صراخها، وكان من المزعج أن تحدثك بصوت هادئ وقور ثم يعلو فجأة فتنفلت أعصابك بلا تحكّم.

أحضرتَ لها طبيبا ليكشف عليها، لم يكن دافعك هو الحفاظ على صحّتها، ولكنه الهاجس من تأنيب الضمير إذا ماتت وأصبح من المستحيل عودتها مرّة أخرى، قال لك الطبيب وهو يُعبئ سماعته وجهاز الضغط فى حقيبته السوداء:

جدتك فى طريقها للجنون.

فى البداية، فاجأتك الكلمة صاحبة التاريخ السيئ، حاولت أن تبدو بمظهر الكبير الذى سيتحمّل المسؤوليّة فى جميع الأحوال، فسألته:

وفى أى مرحلة هى؟

رد وقد أتم تعبئة أجهزته:

فى مرحلة الرقص على السلم. ولكنّها صاعدة للنهاية لا محالة.

بعد يومين تقريبا كانت تصرفات جدتك تسير فى نفس الاتجاه الذى حدده الطبيب سلفا، أصبحتْ تتشاجر لأسباب تافهة، كأن تبحث عن شبشبها فلا تجد إلاّ فردة واحدة، أو تقضم صدغها من الداخل أثناء الطعام، صارت العيشة معها مستحيلة، خاصة وأنها تأتى بتصرّفات عصبيّة لا يتحمّلها شخص طبيعى.

فكرتَ فى شىء جديد، لماذا لا تفكّ ذراعيك وذراعى أمك، ولماذا لا تقنع جدتك بأنه يجب على كل إنسان أن يكون له ذراعان إلى جوار القدمين؟ وأنه لا يمكن أن يعتمد إنسان على جسده الناقص فى الوقت الذى ينشد فيه الكمال، كان اعتراضها على وجود أذرعكما لا يتوافق مع حرّية ذراعيها هى، إذ إنّها كانت تأكل بيدها، وتمشط شعرها الجعد الملبّد، وترمى بالخبز الناشف لعنزتها المربوطة فى المنور، ولكنّها برغم ذلك كانت تريد منكما أن تسفّا التراب.

حدث تحوّل فى رغبات جدتك مرّة واحدة بدون تدرّج، لم يُرضِ نزواتها تخبئة أياديكم عن عينيها، ولكنّها خرجت للشارع فى سهو منكما وهى تربط شعرها لفوق كشوشة كوز ذرة، كانت تركض خلف أى ذراع تراها، تقضمها أو تكاد، سال لعابها فى خيوط شفّافة لا تنقطع، خاف منها من خاف وهرول من هرول، كانت هناك قلّة واجهتها وأوقفت جنونها الزاحف، أجلسوها فوق مصطبة وأوثقوها بالحبال، ظلّت تصرخ كوحش هَرِم يرفض مصيره المحتوم، لم يعد فيها من نشاط إنسانى إلا هزات تشبه التشنجات وصرخة واهنة لا تنقطع، تَبْيَض عينها ثم تصمت، ولا يتحرّك فيها إلاّ نِنى يروح ويجىء كبندول الساعة.

بعد أن هدأتْ جدّتك تذكرت كل ما مر بها كأنه شريط ممزّق تقفز فوقه كائنات طفيليّة، تنمو فيه الأحداث وتُنفخ الروح. فبعد

أن أوثقوها وكمموا فمها همد جسدها وأصابها الخدر، ولّما فكّوها أخذت تصيح:

هُمّ ولاد الكلب سابوا لولاد الحلال حاجة؟

لم يرد عليها أحد، لا بد أنهم أدركوا استعدادها الفطرى للخرف، عادت جدتك للبيت، ورجعتْ لسيرتها الأولى، ازدادت همًا وشراسة فى مطاردة الأذرع المتطوّحة أمامها. هرمتْ كثيرا بعد هذه الأحداث، نما لها شاربان تحت أنفها يمكن لضعيف النظر أن يراهما بسهولة ويعد شعيراتهما المنتصبة.

وبعد حيرتك لأيّام تستدعى طبيبا آخر، ربما يعرف لها علاجا يريحها، ويريحكم، قال وشعره المصبوغ يتطاير من مروحة السقف إنّ حالة جدّتك متأخّرة جدا، ومثل هذه الحالات لابد أن تأخذ تأشيرة الاحتضار، برشامة مُركّزة أو حقنة تُخلّصها من الآلام، وتخلّصكم، وذلك بالاتفاق مع العائل المسؤول عنها، رفضتْ أمك المبدأ، ورفضته أنت أيضا.

اقترحت أمك أن تغلق عليها غرفتها حتى تقل الخسائر، ولكن ذلك لم يردعها عن الركض خلف أى ذراع تقابلها وقضمها، بل وتكسير غرفتها أيضا، كانت جدتك ترى فى أطراف البشر فوائض عن الحاجة.

وبذلك فشلتْ الخطة الأولى لأمك، أما خطتها الثانية فكانت شَغلها الدائم بأشياء غير معتادة، كأن توكلوا إليها مهام لم يسبق لها أن فعلتها من قبل، مثل رتق الملابس أو الجلوس بين الدجاجات للمّ

البيض أو تكويم الزبالة فى شنطة سوداء، وبرغم أنها مهام صعبة بالنسبة لهشاشة الحالة الصحيّة لجدّتك، فإنها كانت تفعلها بامتياز دون مساعدة من أحد.

أما المرّة الثالثة التى كاد فيها الطبيب أن يسب لمن خلّفوكم فكانت منذ أيام قليلة، وقف الطبيب ورفع جلباب جدّتك للكشف عليها، كان بطنها مجعدا ويظهر قفصها الصدرى كمضرب بيض، من كثرة التجاعيد كنت تشعر بأن أمعاءها مكشوفة لا يغطّيها جلد، طال بها الزمن أكثر من اللازم فأصبح متناقضا، تصطدم فيها الصبيّة التى كانت بكائن لا يعرف بالضبط ما يريده من الدنيا. كانت جدّتك تحاول دائما أن تثبت لكم أن العيب فى الزمن وليس فيها. وأن كل شىء سيصير على ما يُرام، فالأرض تدور كالعجَلة ويمكنها استعادة أى شىء. وإمعانا فى إثبات ذلك كانت تحوم حولكما بخطوات أسرع مما اعتادت، فيُلقى ذلك فى قلبك الرعب، والحذر. لأنها فجأة تتخلى عما اعتدتَ أن تراه، تتجلّى أمامك بهيئة مريبة، وربما منفرة.

جذبتْ جدتك سماعة الطبيب الفضيّة فى سهو منه ووضعتْها على أنحاء متفرقة من جسدها، ثم استقرّت السمّاعة على بطنها وقالت موجّهة كلامها للطبيب:

حمرا ولاّ قرعة يا دكتور؟!!

هنا أدركتم بأنها مجنونة، ولا داعى لأى مواربات قد يخسر بسببها الجميع.

(3)

لم تخفنى كلمات حسن بقدر ما أخافتنى نظراته الحادة، دخلتُ العنبر وعبرت كل الراقدين، رأيتُ بعض الزجاجات الفارغة ملقاة تحت الأسرة وبجوار الجدران، وبقع دماء ناشفة تبرقش الملاءات، عندما سألتُ عامل النظافة عنها قال إنها بوية حمراء لترقيم الفرش، كان الراقدون صامتين تقريبا، عدا واحد يتكلّم بصوت خفيض، وآخر يبتسم استعدادا لضحكة، أما غير ذلك فعنوان العنبر هو الصمت المطبق المخيف. تعرّفت على أجواء العنبر والأسرّة أولا قبل أن ترسى عينى فوق السرير الذى قال حسن إنه يخصّ أبى. كانوا ثمانية أسرّة، مفروشة عليها ملاءات كالحة، وفوق الملاءات يرقد مرضى من كل الأعمار والأمراض، وبين كل سريرين كومودينو محطوط عليه زجاجات مياه وعلب عصير وأطباق فارغة وسرنجات.

أحيانا أدّعى الصبر ولكنّى فى الحقيقة لا أمارسه، وأشعر طوال عمرى بأن حرف الصاد فى كلمة الصبر مُغلق على تمنّيات وهميّة مفترضة، وعدم وجود نقط فوقه أو تحته هو دليل على وحدته وانتظاره لشىء لن يأتى أبدا.

جاءت اللحظة الفارقة التى سأتعرّف فيها على أبى. ولكن لماذا أثق فى كلام حسن؟ هل أعرفه من قبل؟ لماذا لا يكون غشنى وضللنى؟ على العموم، لن أخسر شيئا لو بحثت وسألت، لا بد سأعرف أبى أو يعرفنى، فهناك مشاعر وكيمياء لا تستطيع الكلمات وحدها التعبير عنها.

أول ما وقعت عينى على سرير أبى لمحتُ بطانيّة متهتكة النسيج وشريطها الساتان مهلهل، كانت البطانية كأنها ملصقة بالسرير ولا شيء ثالث بينهما، هل كان أبى نحيفا إلى هذا الحد؟ على العكس من ذلك، كان عريضا ومهيب الطلّة، توحى هيئته بالوقار، هكذا وصفته أمّى. وأيّد وصفها أننى عندما وصلت لأول السرير رأيت رأسا سمينا ينام على الوسادة ويغط، يخبئ شعره بزعبوط مقلّم من القطن. سَرَتْ رعشة فى بدنى عندما تأملت ملامحه، فقد كان بالفعل يشبهنى، جلست على حافة السرير وقرّبت وجهى من وجهه، علهما يجدان عنصرا مشتركا يفصل فى الأمر توخيّت الحذر من أن تكون ذخيرتى فى التعرّف على أبى هى فقط مجموعة مشاعر متأهبة لاستقبال أثير من أى شخص والسلام، كان الفصل بين الأحاسيس أمرا صعبا للغاية، ولكن هذه مهمتى التى أتيت من أجلها، والتى أوصتنى بها أمى وهى تحتضر، فكان لا بد أن أتعرّف على أبى بأى طريقة لأريحها فى نومتها الأبديّة.

اقتربت امرأة بدينة وملثّمة، تلبس ثياب الممرضات، رمت على سرير أبى كيسا به برشام فرط وسرنجة وأمبول حقنة بُنّى، بعد دقائق قليلة مرت امرأة أخرى أشد بدانة وتخبئ وجهها أيضا وتلبس زى

لمرضات غريب، سُترة بيضاء واسعة الصدر مشمورة الأكمام حتّى الكوع. رمت على سرير أبي كيسا به قطعة جبنة نستو وبيضة مسلوقة ونصف رغيف، وجهتْ كلامها لأبي برغم تخطّيها الفعلى لجاله:

- حصتك يا عم سعيد.

قالتها بميوعة لا تناسب شكلها، خرج النداء من طبقة أحبال صوتيّة مرققة. كان أبي لا يزال نائما، أتابع فى الرأس النائم ملامحه، كان حاجباه كثيفين وله شاربان أبيضان عريضان كجزء مقطوع من ذيل قط، وعنقه مليء بتجاعيد تناسب سبعين عاما وليس فقط خمسين، أول ما اقتربت منه فتّح عينا واحدة ثم أغلقها على ملامحى وعاد مرة أخرى للغياهب. كان يحرّك رأسه يمينا ويسارا بحريّة كبيرة، دون اضطرار باقى جسده لمجاراة اتجاه الحركة. فتح عينيه الاثنتين بعد قليل وسألني:

- منّ تكون؟

- أنا ابنك. أنا عمر سعيد إبراهيم.

قلتها وانتظرتُ مشهدا عاطفيا ملتهبا كما تتصوّره ذاكرتى من خليط أفلام السينما التجارية، لكنّه لم يحضنى ولم يقبّلنى، بل لم يلتفت لكلمة "ابنك" من أساسه. كانت تبدو على ملامحه علامات التعب والإرهاق، كأنه أتى مشيا من كوكب بعيد. تحوّل أبي من شخصيّة اخترعتها لإنسان أعرفه وأقف أمامه، فقد كان حتّى الأمس فقط مجهولا بالنسبة لى، مع الإلحاح والتكرار، كان لزاما عليّ وعلى أمّى أن نُكمل طريقة اختراعه، فأثناء طفولتى البعيدة، أيام أن أصبح

باستطاعتى شد ذيل قطة ومناجاة عصفورة، كنتُ أرى أبى مغزولا من ضفائر فى الهواء، مُعلّقا، كشيء معنوى خيالى.

حاولت أن أشعل انتباهه بإخراجه من حالة السكون هذه، فقلت له دون أن يسألنى:

– أمى ماتت.

وردّ بعد مدّة طويلة:

– لذلك اصبحتْ تأتى فى أحلامى كثيرا.

– أحلامك؟

– تُعوّض المسافة.

ردوده المقتضبة جعلت التواصل بيننا صعبا، أصبح من المفترض أن أبادره أنا بالكلام كلما انتهى من رده، كان صوته ينسلخ فجأة عن المشهد، فلا أعرف هل العيب فى حنجرته أم فى حاسة السمع لدىّ، انتظر أبى كثيرا حتّى قال:

– أنت على قيد الحياة فقط عندما يكون هناك أشخاص يسألون عنك.

جذبنى حسن بذراعه القصيرة العفيّة من على السرير، اقترب ناحية أبى وهو يوجه إلىّ كلامه:

– جاء وقت الأشعّة. سآخذ منك أباك لدقائق.

رفع حسن البطانيّة مرة واحدة عن أبى. عن أبى.. أين أبى؟ أخذ حسن أبى تحت إبطه، حسن القصير جدا، بذراعه الذى هو فى طول زجاجة، ضم أبى أنا تحت إبطه وخرج، فقد كان أبى، أبى أنا. مجرد رأس، رأس فقط!

* * *

بعض تغيرات جسمانيّة طالت جدتك نتيجة لتشنجاتها التى لا تنتهى، أبرز التغيرات كان عطبا محدودا فى عمودها الفقرى، فأصبحتْ لا تقوى على النهوض بدون مساعدة، ومع تكرار المساعدات، كانت تكدّر من يمد لها يده، فلابد ستطوله شتمة فوق البيعة. ربطتْ لها أمك حبل كتان فى سقف الغرفة، كانت تمسكه كلما همّت بالقيام، فالحبل لن يلتفت لسبابها فى كل الأحوال.

لم يردعها الوهن عن هوايتها العجيبة، فى البداية، كانت أعصابك تنفلت لأتفه الأسباب، ثم حاولتَ بعد ذلك أن تشرح لجدّتك فوائد الذراعين، وكيف أن بدونهما لا يمكن أن تكونوا بشرا، أوضحت لها الاستخدامات عمليّا، فأحضرتَ رحايا صغيرة فى حجم الكف، كانت مخصصة لطحن البن، ورثتها جدّتك عن أمّها، أمسكتَ بمقبضها وأخذت تلفّ دائرتها الحجريّة أمامها، لم يخرج رد فعلها عن ضحك متواصل لا معنى له. حاولتْ أمّك أن تريحك من العناء وشيل الهم، فقامت هى بتكملة الشرح لجدّتك، وبكل الرقّة الممكنة بدأتْ بالكلام عن الفوائد الجمّة للذراعين، عن

شرب الشاى تحدثتْ، وقتل الصراصير والتشطيف فى الحمّام، وأضافت، الذراع تُكبّر، تسند على الأرض وتسجد، والأصابع تسبّح، لم تفز أمك بعد مجهودها الذهنى إلا بمصمصة شفاه وضحكة واهنة وكلمات غير مترابطة قالتها جدتك:

أنتم مثل الوز حنيّة من غير بز.

لم ترد أمك، ولكنّها تحضن جدّتك بحنيّة زائدة، سرعان ما تذوب المشاعر المتناقضة وترسى الموجة على مؤشر الشِجار من جديد. تفتح جدّتك فمها الشاغر إلا من ناب واحد حفر مكانه فى لثتها الورديّة، أحيانا تبدو بطيئة فى نطق الكلمات، وأحيانا تتكلّم وكأن أحدا يطاردها. لّما اشتد أوار المشاجرات رفضت جدّتك الاستحمام على يد أمك كما جرت العادة، وكأنه تهديد أو حرمان من امتياز ما. تكوّنت مع مرور الأيّام حول عنقها وداخل صوان أذنها دوائر سوداء كالفتل، كانت تفركها عندما تتعصّب ويتملّكها الغضب. تحوّلت جدتك فى مخيلتك من كائن يمكن لمسه والحديث معه إلى شبح خارج من بقايا كابوس.

توقّفتْ برغبتها عن الكلام، ليومين كاملين ظلّتْ صامتة، كنوع من توجيه العقاب لك ولأمّك، ولّما عادتْ الحياة مرّة أخرى لأحبالها الصوتّية سمعتَه ليس بصوتها، كانت وكأنها استعارته من امرأة أخرى تشبهها.

نصحكم الأطبّاء المتوالون على علاجها بالحل الأخير، أن تذهب لمصحّة نفسيّة، لم تكن المشكلة فى أن تصبح جدّتك نزيلة مستشفى

للأمراض العقلّية، بقدر ما كانت المعضلة الحقيقيّة هى مواجهة الناس بذلك. وصلها الخبر برغم حرصكما أنت وأمّك على عدم إخبارها، تخلّت إرادتها عنها، تحوّلت لطفلة تبكى وتبحث عن صدر ترتمى فوقه. تبلّدت مشاعرها وعادت كما كانت مسالمة ووديعة، رغبة منها فى عدولكما عن فكرة ذهابها للمستشفى. اقتربتْ من أمك وهى تحاول تقبيل يدها:

يدك أقبّلها. أقبّلها واتركونى. المستشفى لا لا وحق جاه النبى.

سحبت أمك يدها فى الوقت المناسب وجذبت جدّتك النحيفة واحتضنتها، غاص الجسد الضامر بين طيّات جسد أمك المتماسك إلى حد ما. نام الجسدان المريضان وأصبح عليك أن تخط ذكرياتك التى بدأت تتشكّل فى هذه اللحظة.

أدركتْ أمك بغريزتها أنّها لو صممت على ذهابها للمصحّة النفسيّة، سيعلق مشهد أمّها وهى تحاول تقبيل يدها فى ذاكرتها للأبد، ففضّلتْ على ذلك محاولة إصلاح ما فسد فى عقلها اجتهاديا. وضعتْ أمك خطة مُحكمة لتقليل الخسائر، تتلخّص فى متابعة جدتك طوال اليوم على شكل ورديّات، أنت نصف اليوم وأمك النصف الآخر، وتكون وظيفتكما هى ملاحظة أى تغيّرات فى طبيعة تعاملها مع الأشياء، أصبحتْ جدتك شبه طبيعيّة بعد جرعة الحنيّة التى منحتها لها ابنتها، حتى لقد بدتْ لمن يراها أنّها شُفيّت من دائها، شفيت تماما.

بعد أقل من أسبوع كانت جدّتك تلحس قعر حلّة أرز باق منذ يومين، وفى عينها تلك النظرة الغريبة التى كانت تنظر لك بها وهى تحاول قضم ذراعك. هى لم تعد لملاحقة الأذرع المتطوّحة فى الهواء، ولكنّها كانت تمضغ الأكل بطريقة متوحّشة، وعندما اقتربت من الحلة شعرت وكأنها على وشك افتراسك، كنت تبعد يدك عنها بسرعة وحذر، وتراها على هيئة وحش جائع جاء من مكان بعيد ليلتهمك.

تحصّنتْ جدتك طويلا فى قلاع سنّها، فهى تعرف جيدا أن امرأة تناهز الثمانين لا يمكن أن يعترض أحد على تصرفاتها، وأنّه لا بد من معاملتها كطفل مدلل له كل الحقوق. كانت تستغل هذه المزايا بكل قوتها ما أمكن، وتنحدر نحو الجنون فى خطوات منتظمة، كنت تتحسس دماغك وتتأكد أن تحت طاسته يرقد مخك فى سلام، تخشى من كثرة معاملتها أن يُحلّق عقلك بعيدا عن مكمنه، فقد كانت ترهقك بطلباتها التى لا تنتهى، وتتحوّل ملامحها إلى تركيبة فريدة يصعب فهمها عندما تتحكّم فيها شهوة الطعام، كانت تلتهم أكياس المقرمشات وهى مقرفصة وضفيرتها النحيلة تهتزّ كحبل قصير فوق كتفها، ورأسها به شعيرات مجعدة ومتفرّقة، تبان بينها بُقع ورديّة مقززة. بسبب نحافتها وضعفها كنت ترى جمجمتها تحت الجلد كما لو كانت صندوقا ينفتح وينغلق مع حركة فكّيها. ثم تتحوّل تعبيرات وجهها مرة أخرى إلى تقلّصات تستحق التأمّل، وتقول:

بعد كل ما فعلتموه. ماذا تريدان منّى يا غجر؟

تطوّر الحوار إلى أن تحدّثت جدتك أخيرا عن الأسباب التى دفعتها لقضم أذرعكم، شرحتْ لأمك بصوت خفيض عن هواجسها، قالت أنها لا تريد التخلّص من الأطراف المترنّحة إلا من أجل الله، وكان غريبا أن تتذكّر جدّتك الله فى أمر كهذا، فهى لا تصلّى ولا تصوم، لم ترها ولا مرّة واحدة تتوضأ أو تجلس على سجّادة أو تحمل مسبحة، حتى لفظ الجلالة لا تأتى سيرته إلا فى الأمثال الشعبيّة فقط "الله جاب. الله خد. الله عليه العوض واصلتْ شرحها للمسألة من وجهة نظرها، كانت ترى فى اليدين بكل مشتملاتهما سببا قويّا للبطش، فالذراعان هما من يمسكان بالبنادق والسكاكين، والأصابع تُسهّل الضرب والخنق. تدخّلت فى الحوار وقلت لها إن الذراعين أيضا يقومان بالعمل، يزرعان ويصنعان، وكانت غلطتك الكبيرة هى تدخّلك فى حوارهما، انتفضت جدّتك وثارت، وجذبتك أمك خارج الغرفة الصغيرة وقالت بصوت جاهدتْ لكى لا يصل لجدّتك:

كانت على وشك التبرير يا حبيبى. والتبرير يريح قائله. لقد أفسدتَ كل شىء.

حاولتْ أمك بعد ذلك استفزاز وساوس جدتك الدينيّة، ونجحت إلى حد ما، تكلّمتْ جدّتك عن سبب غضبها من ترنّح أى ذراع تراه فى الهواء، حتى ذراعها هى عندما تلمحه فى المرآة، وتكلّمت كذلك عن الرغبة التى تتملّكها فى قضم الأذرع لطرد الشر.

عندما تُقرّب أمك وجهها من وجه جدّتك كنتَ تشعر بأن الزمن يتأرجح بين ملامحهما، مرة مندفعا للأمام ومرّة منسحبا للخلف، تُقبِّل جدتك أمك، فتطقطق بفكّيها طقطقات منتظمة تحملك على النوم. تصحو فتجدهما تتبادلان الحكايات والضحكات، تغفو جدتك بين ذراعى أمك، تبدو كطفل أنهكه اللعب، تفتح فمها، تتحرّك سنتها الوحيدة وتدقّ لثتها ببطء، تحملها مع أمك كمرتبة تَوزع قطنها بغير عدل، تسحب أمّك عليها الغطاء وتخصّك بحديثها الذى يصلح لإنهاء اليوم:

كلّنا محتالون يا حبيبى. محتالون ونزجّ بلفظ الله فى أمور لا تناسبه فى الغالب. دع جدتك تأخذ نصيبها من الاحتيال.

(4)

كما تتلاشى الصورة فى فيلم السينما وتحل محلّها صورة أخرى جديدة كان إحساسى، خرجتُ من الواقع بطرف خيال بارق، ودخلت عالما آخر مليئا بدخان ضبابى وأبخرة ملوّنة، كنتُ أتخيّل أن الأشياء السيئة تحدث فقط للآخرين، ولمّا اكتشفتُ أنها يمكن أن تحدث لى كان يجب علىّ أن أفعل شيئا، لا أعرف ما هو هذا الشىء الذى يتوجّب علىّ فعله، ولكنّى برغم ذلك ظللتُ أقول لنفسى: "يجب عليك أن تفعل شيئا يا عمر" حمّسنى سماع اسمى لفعل ذلك الشىء المجهول.

كنتُ كمن وقع فى فصل من رواية وأصبح شخصيّة تتجوّل على ورق، فى لحظة واحدة، مرت أمامى الصور الورديّة التى رسمتها لأبى، حتى فى أسوأ التصورات لم يخرج فى خيالى عن شخص نكدى كئيب، أو شخص غير وسيم بالمرّة. توقّفتْ تصوراتى الخيالية واصطدمت بواقع لا يمكننى إلا التعامل معه بجدّية. حاولتُ أن أبدو أقل خوفا، ربما جعلنى ذلك أبدو خائفا بشكل أكبر.

كانت الحياة تسير وفق منهج معد سلفا، تكدّستْ الأحاسيس المريرة كلها دفعة واحدة أمامى، هُيئ لى بأنّى أنام خامدا فوق سرير

تمدني ملاءته بأحلام متوالية، فيها مرتع لاختلاط المشاعر الغامضة، كأنى أبحث عن بلد مجهول، أحاول استكشافه وفى يدى خريطة بدائيّة، أرى الناس من حولى يتحركون كشعيرات صغيرة تتحوّل بسرعة إلى ضفيرة، كنتُ كمُخرج اخترع شخصيّة ثم وقف أمام تصرفاقما عاجزا لا يستطيع تعديل مسارها، فأصبح فقط يتابعها وهى تواجه مصيرها.

شعرت بأن أبى لم ينجبنى، وأنى ما زلت ماء يسرى فى أوردته وحلقات عموده الفقرى، وكأنى شىء يحتمى بمكمنه البعيد. فى تلك اللحظات كنت أود تدوين بعض الملاحظات حول المستشفى، كنتُ أحمل دفترا صغيرا مليئا بالهوامش، حتى الملاحظات التى تبدو تافهة، لم أكن أفوّتها، فالتذكّر هو مادة الفن. مرت ذكرياتى كشريط سينما تالف، نبتت التصورات كما كنتُ أحفظها فى ملفات رأسى. وقفتُ أُحدّقُ فى الرأس وأتخيل، أرمم الصورة ليبدو أبى أمامى إنسانا كاملا، كنتُ أُشبه شخصا جاء للإغاثة، ودون أن يدرى أصبح فى أمس الحاجة لمن يغيثه. بعد أن تشبّعتْ عينى بالصورة وتأكدت من أنها هى الحقيقة وليس أى شىء آخر؛ انطفأت بعض المصابيح فى دماغى، لانت حدّة الأفكار عندما اقترب منّى حسن، زمّ ملامحه فانغلقت عينه الحولاء وتواربت السليمة، ولم يتكلّم.

كان هناك سرير خالٍ بجواره، تمددتُ فوقه وغبت، رحت فى حلم تشابكتْ أحداثه سريعا، رأيت ثلاث دجاجات سوداء تنقى من الأرض دودا أبيض، وبعد هضمه جلست الدجاجات تستريح وهى تهضم الوجبة فى كسل، وبعد أن تحوّل الدود الأبيض لجزء من كيان

الجسد الأسود بحثت الدجاجات عن المزيد من الطعام، لم يكن أمامها إلاى، وبرغم كونها دجاجات تافهة وعبيطة، فإننى منها ركضت، وقبل أن تلحق بى شعرتُ بوخزة خفيفة فى ذراعى، لَمّا أفقت وأدركت وجود الدجاجات فى كوكب آخر أخذتُ أنادى على أشخاص فى مدينة بعيدة ومجهولة، ولَمّا استقرّت روحى رأيتُ حسن. نظرت بجوارى فلمحتُ أبى نائما كما هو، أو بالأدق رأسه نائما.

كان حسن يُطعمه قطعة جبنة نستو، وضعها فى فمه مع لقمة صغيرة، مضغها على مهل وهو يتأملنى ويُضيّق عينيه، كان يضغط بنواجذه على اللقمة ثم تنقبض تفاحة آدم وتتأرجح صعودا وهبوطا، تتقلّص ملامحه وتتعرّق إلى أن ينتهى من اللقمة، فيدسّ الأحول غيرها. استفسرت من حسن:

– منذ متى وأبى على هذه الحال؟

رد أبى الذى سمع سؤالى وكان عطر ما بعد الحلاقة يفوح منه:

– هل حولتنى أمك لحكاية واحدة. أم إلى عدّة حكايات؟

لم أرد، ولكن حسن رد بعد أن زر عينه الحولاء:

– عرفته هكذا.

نظر إلىّ أبى، ثم قال وكأنه لا يوجه كلامه لشخص معيّن:

– كانت مثلك. تحب الأسئلة.

ولَمّا خمّنت بأن السؤال يخصنى تجاذبت معه أطراف الكلام:

- منّ تقصد؟

- أملك.

لمحتُ تحت سرير أبى حذاء أحمر، ماذا يفعل بالحذاء؟

صمت حسن قليلا، اعتدل فى جلسته على حافة السرير وكأنه يستعد لقول شيء مهم، ثم تحدّث عن أبى وهو ينظر إلى ملامحه، قال إن أبى هو الوحيد الذى رفض الانتقال إلى مستشفى آخر، ثم رفض كل ما قرره المدير على النزلاء، لم يترك سريره عند سماعه الشعائر التى تنطلق من المئذنة الصغيرة المطلّة على نوافذ العنبر، وأضاف حسن أن أبى كان عندما يسمع النداء يغطى وجهه بالبطانية، فيمر رجل مهيب الكرش والردفين، تبدو على ملامحه الصرامة وتنفيخة النعاس، يضرب بعصا خيزران كل البطاطين المفرودة ومن تحتها الأبدان، ثم يضرب بعد شد البطاطين الأبدان نفسها، كانوا كلّهم ينصاعون إلا أبى، لم يؤثر فيه ترغيبا بالجنّة أو ترهيبا من السعير، كان رفضه نابعا من عناد وإصرار طبيعيين فى شخصيته أكثر منه رفضا لأسباب النزاع، بدأ الرجل مهيب الردفين أولا بلعبة الترغيب، فوصف تغريد البلابل صباحا على أن الطير تبحث عن رزقها، وهكذا البشر أيضا، لابد أن يبحثوا عن أرزاقهم وعن خالقهم، فقال أبى العنيد أنها ليست بلابل، بل عصافير متشردة تنعق بصوت مزعج يجلب الضجر، وأنها لا تبحث عن رزقها، وإنما تطير فحسب، مثلما يمشى البشر وتركض الوحوش وتزحف الديدان، ثم أضاف:

"انتهى الأمر ولابد الآن أن تتصرف"

ولم ينصرف الرجل الذى تقوّس شاربه وقبّت لحيته للأمام من فرط الغضب. ولكنّه ذهب مباشرة للمدير الذى أمر بدوره بعقد مجلس الأحكام.

وقف الرجل مهيب الردفين فى يوم جمعة، خصص الخطبة كلها عن أبي، أضاف بين كلماته بعض التوابل اللغويّة لإثبات وجهة نظره. بعد انتهاء الشعائر خرج الحرّاس قاصدين عنبرا واحدا، وقاصدين سريرا بعينه، هو رقم 1، الذى يرقد عليه أبي، اقتادوه للفِناء وأوثقوه بالحبال فى عمود إضاءة كريتال بجوار مزلق مخصص للكراسى المتحركة. بدأ الرجل مهيب الردفين بتلاوة بعض الأسئلة على أبي لكى يبدو أقل قسوة أمام الجموع المتحفّزة. ولم يرد أبي على أي من أسئلته، فتبرع ثلة من الحرّاس لمساعدة الرجل مهيب الردفين، أخرج أحدهم ورقة بها أسئلة جديدة ومد يده بها للمحقق، كانوا فى شبه غيبوبة يتمايلون ويهدرون.

رأيتُ المستشفى بالكامل وقد أصبح امتدادا لعنبر أبي، بل امتدادا للسرير الذى يرقد عليه. دارت فى رأسى بعض الأفكار المبتورة، لم أستطع الإمساك بواحدة، خمّن حسن ما يدور داخل رأسى، فقال وهو يرسم على ملامحه عبارة تهكم طويلة:

– لا تخف. هم لا يمسّون الزائرين.

وقبل أن أفكر فى رد مناسب أضاف حسن:

- ولكن من يدرى. فقد كنت أنا زائرا منذ شهرين، ثم تحوّلت الآن إلى نزيل.

* * *

أصر الطبيب على ذهاب جدّتك إلى المصحّة، فحالها هناك سيكون أفضل، ورضيتما أخيرا بالمكتوب، لم تقل لها أمّك إلى أين بها ستذهبان، فقط قالت جملة لا معنى واضحا لها:

تعالى نشم حبّة هوا.

انصاعت جدّتك بدون مقاومة وملامحها غير مطمئنة لمسألة شم الهواء، هى تعرف جيدا أنها لا تخرج من البيت إلاّ للعلاج، وتعرف أيضا أن المرة التى لن تخرج فيها إلى الطبيب ستتجه إلى القبر، كانت قد استسلمت كثيرا عن ذى قبل، باتت راضية بالقدَر بشكل كبير، أو بتعبير أدق، أصبحت لا تقوى على المقاومة كما كانت منذ أيام قليلة. سألتْ جدتك سؤالا لم تجد أمك عليه ردا:

لماذا تجمعين ملابسى كلّها ما دمنا سنشم الهواء فقط؟!

وعندما تلعثمت أمك فى الرد زامت جدّتك ومطت شفتيها للأمام، وساد المشهد صمت مريب. رأيت جلد جدتك مكرمشا وبه لمّة منفرة، وعروق خضراء نافرة كأنها ملّت طول الحبسة فكادت تنط للخارج، أخذتْ جدّتكَ تتضاءل أمامك حتى هُيئ لك اختفاؤها، وكأنها كانت فقاعة أو خيالا أطاعت أمك وهى تغيّر لها

ملابسها، وكأنها تحوّلت لدمية لا حول لها ولا إرادة. كانت ضعيفة جدا ونظرتها باهتة، عندما تأملتها تخيلت أن عينها ابيضّت واختفى منها النني. أصبح لونها كبيضة مسلوقة. رشّت أمك تحت إبط جدّتك بختين من زجاجة عطر قديمة على شكل تمثال، وتتأفف جدتك، لا من الرائحة، ولكن من التوجّس.

جاءت السيّارة الأجرة لتنقل جدتك كيفما اتفق، بدت عظامها بالنهار أكثر بروزا وضعفا، وبينما أنتم سائرون فى الطريق طلبتْ منكم التوقف، فركن سائق السيارة على جانب الطريق، نزلت جدتك وجلست على أريكة فى الشارع، ظلّت تتأمل المارة بنهم، تضيق عينها أمام أى ذراع تراه، خاصة تلك الأذرع العارية، تتأمّل البنات الصغيرات اللاتى تتجولن وتلعبن، أشعل السائق سيجارة وجلست أنت بجوار جدّتك، وقفتْ أمك تضع سبابتها وإبهامها فوق شفتيها، وفى محاولة منها لمواساة جدتك تقرّبت منها وقالت كلمات عن النصيب والقدر وأن ربنا كبير وأشياء أخرى من هذا القبيل، ردّت جدتك بكلمات غبيّة وغير شاعرية بالمرّة من نوعيّة ربنا يقصف عمركم، يا رب أشوف فيكم يوم وأمشى فى جنازاتكم كلّكم.

بعد دقائق قليلة ارتخت أعصابها، داهمها خدر طويل لصالح النوم والأحلام، حملتوها ووضعتوها فى السيارة مرة أخرى، ثم اتجه السائق إلى المصحّة. رحت فى غفوة وسرحت عن الناس والأجواء، فرأيت

جدتك تجلس أمام طاولة كبيرة، وأمامها عيال صغار يقذفونها بأكاليل زهور ناشفة. أفقت على صرختها العنيفة وكلماتها المنفلتة:

نزلونى هنا يا أولاد الكلب.

جمد قلب أمك بشكل مفاجئ، شخطتْ فى جدتك وكأنها تكلم طفلة، قاطعتْ صوت جدتك العالى، ردّت عليها الشتمة بمثلها حتى سكن الصوت ووهن، ثم عاد المشهد لسيرته الأولى، صمت وأفكار تستعصى على الصياغة تدور فى الأجواء بدون تعبيرات، كانت الحناجر قد تعبت والألسنة أجهدت والأبدان حملت. عند اقتراب السائق من المستشفى توقّف بعيدا عنها بمسافة كبيرة، ولّما سألته لماذا لم يدخل؟ أجاب:

الشر برّه وبعيد يا أستاذ. هُنا الآخر. معكم ربنا.

عندما شعرت جدتك بأن عليها النزول تمسّكتْ بالكرسى، أخذتْ تشهق وكأنّها تقاوم الغرق، ثم استكانت سريعا وثقل رأسها، أصبحت كطفل على وشك النوم. وقالت بصوت ضعيف موجّهة كلامها لأمك:

ما دمت لم أحدف الناس بالطوب لماذا جئتم بى إلى هُنا؟

منذ توقّفتْ السيّارة بكم أمام مستشفى المجانين وأنت تشعر بأنّك فى مغامرة مثيرة، لم تكن المسافة تزيد على مئة متر حتى بوّابة المستشفى، ولكنكم قطعتموها فى أكثر من نصف ساعة، كانت جدتك تسير بينكما وأنتما تحملانها تقريبا من على الأرض، بسطتْ الكآبة ظلّها على ثلاثتكم، جدتك كأنّها تهوى فى منزلق، وأمّك

تحاول الإمساك بها، وأنت حائر فى التوفيق بين ما تشعر به وما يجب عليك فعله. كانت التفاعلات الداخلية فى وعيك ترفض وصف جدتك بالجنونة، فللكلمة وقع سيئ، ولكن إرضاء لنفسك قلت، حتى لو أُلصق بها هذا الوصف فهو مجرد تغيّر فى التصورات ولا يُشكّل خللا أساسيًا، فالمجنون لو جُرح إصبعه سيتألم كما يتألم العاقل، ولو مات سيتم دفنه بنفس الطريقة، وسيقيمون له أيضا نفس المراسم والشعائر. عاودتْ الكلمة المرور أمامك من جديد كأنّها طيف، "جنون" الحروف مرصوصة بجوار بعضها، تثير فيك شجونا عقليّة، الجيم حرف مغلق، له مترلق أفقى كالقرطاس، تترسّب فيه متاهات المخ متناهية الصِغر، والنقطة من تحته تقف كحارس ينتظر مصير الحرف، أما النون، الحرف الثانى، فهو إناء لطهى ما قبله من شجون، وما بعده من احتمالات، والنقطة فى منتصفها كحساء شحيح ووحيد، والواو، الحرف الثالث، يعطف على النونين، أمّا النون الأخيرة فهى نهاية المطاف، ومقبرة الأسئلة المتوقّعة بلا إجابات معروفة، والسد الذى تتوقّف عنده كل ارتباطات الكلام، فلا تعود أبدا كما كانت قبل أن تمر الكلمة وتأخذ موقعها المفترض.

تَلفَتْ أعصاب جدتك وانفكّ تماسكها عندما أصبحتم أمام البوّابة، لم يكن أحد يعلم متى يمكنكم الخروج إذا ما عبرتم هذا الحاجز الحديدى الأسود. أخرجت أمّك من عبّها تذكرة التحويل مرفقة بروشتة بها الدواء الذى كانت جدّتك تتناوله. عبرتم البوّابة، كانت الأجواء بالداخل أكثر سكينة وهدوءا من تصوراتكم المسبقة، وعلى عكس توقعاتك، لم يكن هناك "ملاحيس يقفزون كالقرود

فوق أغصان الأشجار، ولا عجائز يربطون آذانهم بأقراط من فِرد أحذية أو يلطّخون وجوههم بعصير الطماطم، ولم تجد كائنات تقفز من بين أقدامكم وهم يضعون أكاليل من العشب فوق رؤوسهم.

وصلتم لمكتب الطبيب المختص، كان بشوشا لدرجة أنه وجد صعوبة فى غلق فمه، ظل يسأل جدتك أسئلة عامة ولا جدوى منها، سنك، سكنك، هل تجيدين طهى المسقعة. انتقل من هذه الأسئلة السخيفة إلى استجواب أمك بعدما نظر مليّا فى دوسيه ملىء بالأوراق أمامه:

هل تفعل ذلك منذ مدّة طويلة؟

فردّت أمّك وهى تتلفّت حولها مثل اللصوص، اقتنصت الإجابة على سؤال الطبيب دون أن تلحظها جدتك:

منذ أربعة أشهر.

أمر الطبيب البشوش بانتظار أمك وجدّتك بالخارج، ثم انفرد بك وسألك:

هل أصابك مكروه بسبب علّة جدّتك؟

كلمة مكروه ليست دقيقة. ولكن فقط بعض المضايقات.

كان يكتب كل ما تقوله، وكأنه سيسترشد به فيما بعد. وقف وترك قلمه ينام فوق الدوسيه وقال:

أتعلم أن جدتك ليست الحالة الأولى التى جاءتنا وتريد التهام أى ذراع تراه؟

هل هناك حالات مشابهة؟

ترك الطبيب القلم ينام فوق الأسئلة التى طرحها، ثم شبّك كفيّه خلف رأسه وقال:

أربع وستون حالة فى ثلاثة أشهر فقط.

أخذتْ المسألة بالنسبة لك بُعدا مختلفا بعد كلام الطبيب. فقد كنت تتعامل مع جدّتك على أنها مجنونة ولا تُصدّق ما وصلتْ إليه، ولكن أن يشاركها فى نفس الحالة ثلاثة وستون شخصا فهذا حقّا غريب. عدت للطبيب هذه المرّة ليس للإجابة على أسئلته، ولكن لتسأله أنت:

وهل عرفتم السبب؟

أسباب متنوعة لا يربطها شىء واحد.

صمتَ قليلا ثم قال بطبقة صوت أقل:

ولكن أغلبهم قالوا إنهم يشعرون بعد محاولات القضم بأنهم قد ازدادوا إيمانا.

(5)

عندما داهم الغروب العنبر نظرتُ من النافذة، فلم أر إلا ظلالا خلّفتها إضاءات أعمدة تظهر على مدد الشوف فوق الكوبرى، وفى القريب، مئذنة مسجد صغير زاخرة بإضاءات فيها ألوان وزينة، وأمام المسجد تتجوّل عربات جمع المخلّفات الطبيّة الخطرة.

على مقربة، كانت بعض التمرجيّات تطهو للأطبّاء طبخة عجيبة، قال حسن إنّهم يسمونها "فتّة الأرز المعمّر"، وكانت عبارة عن خلاصة رءوس بقر وصدور ديوك روميّة مفروكة بكركم يعطى الأطباق لمعة ذهبيّة، كان الأطباء يأكلون بنهم، يحشون بطونهم كأنه آخر الزاد.

توقّف حسن عن إطعام أبى الذى كان محملا بأمارات التعبير، فقال شارحا حكايته:

لم يكن الرجل مهيب الردفين منذ شهرين يركعها، ولم يكن مقيما فى مصر أصلا، ولمّا تجمّع له جمهور يؤيد كل ما يقول، وجدها وظيفة مريحة، وهل يوجد فى الدنيا أفضل من أن يصدّق الناس كل ما يقوله إنسان؟ عند جَلدى فى الساحة أمام المسجد، وقبل أن أفقد جسدى

بالكامل، كان كل من يقترب منّى ويتبرّع بضربى يشعر بنشوة غريبة، نشوة أحسها فى قسوة الضرب وغِلّ الزغد، لم يجهّزوا عدّة تعذيب، ربما لو فعلوا لكان ذلك فى صالحى، فلو أعدّوا الكرابيج أو حتى المقصلة كان سيسبق ذلك محاكمة ما، ولكن لأن المسألة كلّها جاءت عفويّة، فإن العقاب العفوى دائما أقسى وأمرّ. بدأ الحرّاس أولا فى البحث عن سُبل يستحوذون بها على جسدى، فلم يجدوا إلا أحزمة الأمان فى كراسى السيارات، ثم بعد ذلك بحث الجمهور عن أشياء شبيهة، سحب بعضهم أسلاكا كهربيّة من الأجهزة الطبيّة، وإمعانا فى التعذيب كانوا يُقشّرون العازل البلاستيك عن المعدن النحاسى الرفيع، ومنهم من أتى بخراطيم قسطرة مستعملة دون النظر لفكرة العدوى، ومنهم من لفّ على كتفه أحبال غسيل لا أعلم من أين أتى بها. تجمعوا كلّهم من حولى بعد صلاة العصر وصنعوا دائرة كبيرة، اقترب قائدهم منّى وظلّ يُلوّح بسير كبير لفّ طرفه حول كفّه، وما أن بدأ صياح الجمهور حتّى اجتاحت حُمّى قويّة كل الواقفين من حوله، فبدأوا يُهللون ويزمجرون، تاه صوتى الضعيف وسط هدير من التداخلات الصوتية القويّة، بعد ضربتين فقط أحسست بصداع قوى دون ألم محدد، هُيئ لى قبل بداية توقيع العقوبة أن الأمر سيكون أصعب، لكنّى أدركت بعد ذلك بقليل أن المشاعر السلبيّة التى اجتاحتنى كان مبالغا فيها وطفوليّة، إذ كنت أفكّر فى الدم الذى سيسيل والألم الذى يهز الجبل، لكنّى أفقت بعد أسبوع واكتشفتُ أن الأمر غير ذلك بالمرّة. فقد رأيت الغروب قبل ميعاده بساعات، وبعد

توقيع العِقاب بقليل أحسست بأننى أطير، أبتعد عن الرؤوس المتشنّجة، أذهب بما تبقى منّى إلى عالم بلا أرض، لا ارتباط ضروريا هناك بين الأسئلة والأجوبة، ولا توجد إشارات استفهام ولا علامات ترقيم.

جرّونى بعد ذلك وأنا متفسخ المفاصل ومنهك. هيئ لى أن شخصا يمسك بزعانف شخص آخر ويسبحان معا فى الهواء، ومن حولى تكوم جبال قطن وبكرة شاش كبيرة، ظلّوا يلفون ذراعى بالشاش حتى اختفى تقريبا، وبرغم عدم وعيى الكامل سألت نفسى، متى كُسِر ذراعى، وما دمتُ فى نظرهم مذنبا وارتضوا تعذيبى، فلماذا يعالجوننى؟ ربما أرادوا أن يجربوا معى سعير الدنيا، أى كلما كسرت عظامى جبّرونى ليكسّرونى مرة أخرى؟ جرّونى بعد ذلك لعنبر كبير، يقف على بابه أشخاص تنبت لهم لحى حمراء بلون قشرة الرمّان، ثم..

توقف أبى عن تذكّر الأحداث وكأنه خرج من الحلم، تثاءب وتخيّلت له جسدا يتمطّع، وحسن يجلس بيننا، يُملّس على شعيرات متبقّية فى الرأس النائم.

مال حسن علىّ وقال إن إمدادات الغذاء فى المستشفى على وشك النفاد، كان الجوع قد بدأ يتملّك منى ويقرص أمعائى، لماذا لا أخرج وأشترى ما يعجبنى من طعام؟ وبالمرّة، أعزم أبى وحسن على وجبة ساخنة، فذلك سيكون بالطبع أفضل من التعيين الناشف الذى يوزعونه عليهم مرتين فى اليوم.

خرجت فى اتجاه البوّابة التى دخلت منها، هُت عنها فى الأول، ثم عرفتها فيما بعد بالشبه، كان سبب توهانى هو تغيير الورديّات، فرجل الأمن الذى نظر فى تصريح الزيارة عند دخولى كان نحيفا وطويلا وأسمر كعمود نور لا يضيء، أما الآن فيقف رجل بدين جدا، يجلس كالزكيبة أمام البوّابة، نظر إلىّ بعين مِخْمرّة وأشاح لى بكفه السمينة أن أعود أدراجى. فاقتربت منه وسألته:

– أين زميلك؟

– زميلى؟

– من كان واقفا هنا منذ ساعتين.

– أنا واقف منذ ثمانى ساعات.

– أنت تكذب. فأنا كنتُ هُنا منذ ساعتين، أو ثلاث على الأكثر

– يا عم روح.

ثم اقترب منّى بشكل مبالغ فيه، حاولت إقناعه بأنّى دخلت من هذه البوّابة منذ ساعتين ونصف تقريبا، ولم يقتنع، لماذا أوجع دماغى بمحاولة إقناعه؟ أمسكت بالبوابة، فتحتها، أصبحتْ إحدى قدماى بالخارج، انقضّ الرجل السمين علىّ، جذبنى من ذراعى ودفعنى للداخل فكدت أقع، شعرت بالخطر من شدة الدفعة، استعطفت الرجل الذى تحولت ملامحه بسرعة غريبة فى اتجاه شراسة غير مبررة:

– سأشترى طعاما.

- هأ.

- طعاما من الخارج ثم أعود.

- هأ.

- لقد كنت بالخارج منذ ساعتين فقط.

- عد كما كنت أحسن لك.

تبدّل قلقي بهاجس جديد تماما، الخوف، بالفعل عدتُ إلى أبي، كان المشهد كما هو وكأنهما تيبسا منذ تركتهما، حسن يجلس على حافة السرير، وأبي يخصّني بتكملة ما حدث له فى حوش المستشفى على أيدى الحرّاس الجدد، قال وملامحه تبدو أكثر هدوءا:

- ثم حضر الرجل الذى أنهى المسألة كلّها فى غمضة عين.

- منَ؟

فاندفع وكأنه ينتظر أن يسأله أحد:

- سيف باشا!

* * *

وهكذا بين عشيّة وضحاها أصبحتْ جدّتك مجنونة، كان هذا رأى طبيب المستشفى الذى دوّنه بجرّة قلم، ربما ليؤكد وجود منبوذين فى هذه الحياة. تركتماها تواجه مصيرها وعدتما أنت وأمك إلى البيت، تقسّمت المهام التى كانت تقوم بها جدتك بين اثنين فقط، وأصبحتَ تنام بعمق منذ تركتْ البيت. ولكن الناس فى

مدينتك الصغيرة لم يتركاكم فى حالكما، قالوا إنكما تخلّصتما من جدتك بإيداعها مستشفى المجانين، وهى التى لا تستحق منكما ذلك أبدا، وقالوا أيضا إنكما قساة القلوب، وكانت أى محاولة لمقاطعتهم تبدو غير وجيهة.

بعد ذلك بأيام قليلة اشتكت أمك من أوجاع جديدة، لم ينعم بيتكم بيوم واحد يكون مكان المرض فيه شاغرا، كتركة تتوارثها الأجيال. مرض أمك جاءها لا يحمل اسما هو الآخر، كانت تصحو من نومها مفزوعة كأنها ممسوسة بكائنات حضرت من بقايا حكايات قديمة، تشير إلى قدميها وتقول إن أظافرها اخترقت الحُجُب، بالفعل، كنت ترى أصابع قدميها جامدة وملتهبة، تلمسها كأنك لمست نارا، ثم تَبْيض عينها مثلما كان يحدث لجدتك، تحكى عن اجتيازها لحلقات من لهب، تسعل بصوت متحشرج كالحشاشين، ثم تتغيّر نبرة صوتها تماما وتناديك باسم غير اسمك، تقول يا سعيد، وتنبّهها لأنّ اسمك عمر، وأنّ سعيد أباك مات قبل أن تولد. وتركّز أمّك جيدا قبل أن تقول:

سعيد لم يمت.

انقسمت أمك بعد غياب جدتك لشخصيتين، شخصيّة تنام بالليل وهى كما عرفتها منذ وعيت، واهنة الصوت، مسلوبة الحيل، جُملها قصيرة ودالة على الهدف من أقصر الطرق، لا ترد على أغلب استفساراتك، ثم بقدرة قادر تستيقظ فى منتصف كل ليلة بصوت وهيئة مختلفين، تحكى حكاياها بشغف طفولى ومشاعر رقيقة، تلضم الجُمل وتحوّرها على قد خيالها، تنصتَ إليها وكلّك

شغف لمعرفة آخر الحكاية، كانت الموضوعات شيّقة وغير مترابطة، تفسدها محاولات التحليل، وكنتَ عندما تسمع صفير الليل تهيئ روحك لاستقبال أشخاصها، كائنات ليست من لحم ودم، بل مشغولة من هواء وضياء، تشعر وأنت فى حضرتهم بأنك تمشى على بساط من زهور، وتحس أصابعك مرشوقة فى جرابات ناعمة كأنها أغماد من ورود، تحل مفاصلك وترى نفسك طائرا والكون من تحتك يبدو صغيرا، والدنيا بكل عُقدها عبارة عن كرة من خيوط متشابكة وتافهة.

اعتبرتَ ما حل بأمك شيئا مسلّيا، جعلك تتحمّل سخافة الواقع، ولكنّك لاحظت أنها كبرت فجأة عندما ابتعدت جدّتك عن البيت، بانت تجاعيدها قليلا، وكأنه لا يصح أن يكون مكان الكبير شاغرا، وكأن جدتك يُعاد إنتاجها بشكل مختلف، وأنت تتابع التغيرات فى جميع الأحوال، كانت أمّك تبدو أخف ظلا عندما تستيقظ بالليل وتحكى لك ما يشغلها، فتحدثك عن بنات تطير وفرسان يعبرون البحار بقفزة واحدة، كنت تشعر عندما تأتى سيرة البنات بشىء من التلذذ الحر، تتسلّقك مادة طفيليّة جنسيّة وينتصب شعر رأسك، كنت تستدعى نتفا من طفولتك أثناء فترات الاستماع، تشعر بأنك تحولت لكائن من قطيفة، لا يشغلك ما كنته أو ما ستصير إليه، ترى الآن فقط، الآن الذى لم تكن تعلم عنه شيئا فى حضرة جدتك، فقد شغلتكما مدّة طويلة بالخوف، بالحرص على أطرافكما الفوقيّة من سُعار فكيها، فربطتوهم مرّة، وأخفيتوهم عن عينها مرّات.

ولكن تغيّرا نوعيّا حدث لأمّك فى فترات استيقاظها أثناء الليل، كانت تحكى عن زمن صباها كثيرا، وكان عجيبا أن تحدثك عن تحججها بالذهاب لأبيك الذى كان يعمل ترزيّا، وصفت لك بدقّة كيف كان يضع لها الخطابات الغراميّة بين طيّات عباءتها بعد تحسيمها على قدّها، وتحدثك كذلك عن الطريقة التى كانت تلمس أصابعه بها أصابعها. تضحك وتشرق بصّتها وهى تلف كتفيها فى الهواء برقّة، كأنها عبرت بك الزمن، فى هذه اللحظات الخرافيّة من عمر اليوم كانت تتبخّر المحاذير وتتلاشى التوجيهات، كنت تشعر لو أن أحدا رفعك فى الهواء بخيط عنكبوت فستستجيب للقفز بيسر، وربما للطيران أيضا.

ولكنّها كانت المرّة الأولى التى تعرف فيها أن أباك كان يعمل ترزيّا، وربما هى المرّة الأولى التى يحضر فيها بقوّة فى حكايات أمّك. أكانت صبيّة شاعريّة تتسحّب من وراء أبيها وتذهب لمحل الترزى الذى يقف فيه حبيبها؟. سعيد، الشخص الذى سيصبح أباك بعد مرور زمن غير معلوم؟ لو عادت أمك صبيّة صغيرة فى مثل سنّك، هل كنت ستحتاج لأب؟ أم كانت أمك الشابة ستلعب الدورين معا؟

على أيّة حال، فقد عادت أمّك فى الصباح لسيرتها الأولى، تسعل وهى تجرّ قدميها لأقرب كرسى، كنت تشعر بأن أمّك الأولى تجيد تمثيل دورها، فلم تعلق بذاكرتك كثيرا، أو بالأدق، كنت تتحمّلها لتعبر مرحلتها بسرعة، فتحملك على أجنحتها إلى أمّك الثانية، الرائعة.

(6)

مشينا أنا وحسن مسافة كبيرة داخل أسوار المستشفى وما يشغلنى هو أمر واحد، لماذا لا يمكننى الخروج بالفعل من هنا؟ هل عبور سور قصير يحرسه شخص يمكن مساهاته بسهولة أمر بالغ الصعوبة؟ طرحت هواجسى على حسن بشكل مباشر

- ألا يمكننى الخروج من هنا أبدا يا حسن؟

لم يجب، ولم يثر سؤالى بداخله أى هاجس أو حتى دافعا للتفكير، كل ما فعله أنه هز رأسه مرتين وهو يخرج سيجارة من العلبة، ثم انحنى يلتقط من الأرض حبا من نبات أخضر فى حجم البندق، أخذ يرجم به طيورا شحيحة تقف على أغصان الأشجار العالية. كان الليل ينسحب ببطء وتظهر بقع ضوء فى السماء، لفحة هواء ساخن لفّتنا ونحن نتجوّل بين الممرضات البدينات والعمّال العابسين. أشعل حسن السيجارة وأخذ يسحب منها أنفاسا عميقة ويخرج الدخان من فتحتى أنفه، خرج هادرا كشلاّل يعبر كوخين، مد يده تحت إبطه ونتف شعرة بتلذذ، ثم انشغل مرّة أخرى بسيجارته ودخانها الذى كان ينفثه بالورب من بين شفتيه كما يفعل عتاة المدخنين.

ترجّل حسن فى اتجاه العنبر، وسرت خلفه، ثم سَرُعتْ خطوته وكأنه تذكّر شيئا هاما، اجتهدت لمسايرة ركضه، كان هو الأسرع برغم قدميه القصيرتين، دخل العنبر وأضاء النور، كان يتجوّل بين الأسرّة وكأنه يبحث عن شيء فقده، اقترب من سرير كان يرقد فوقه رجل عجوز يشبه حسن إلى حد كبير، الرجل مضطجع ويتنفس بحشرجة، فى أنفه معلق خرطوم، والخرطوم موصّل بسرنجة كبيرة تشبه الحقنة الشرجيّة، وصّل حسن فيشة خلاط به بعض المكونات التى كانت تبدو من بعيد كبقايا طعام، ضغط على زر التشغيل فارتفع صوت مزعج لثوان، أصبحت الخلطة كلّها كمرق لزج، صبّها حسن فى الحقنة الكبيرة وأخذ يضغط عليها فيشهق الرجل العجوز، على ثلاث مرّات وزّع المخلوط، بعدها نام الرجل ووصل غطيته للعنبر المجاور، خرج حسن، ومن خلفه خرجت، وسألته:

- هل هذا أبوك يا حسن؟

- لا.

- فلماذا تشغل نفسك بما يجب أن تقوم به الممرضات؟

- لو لم أكن كذلك مع كل النزلاء لكان أبوك الآن مجرد رأس ميت يعزمز فيه الدود.

يُفضّل حسن ألا تكون إجاباته مستفيضة، يترك دائما مساحة وافية للتفكير والتأمّل، كل رد فعل له يذكّرنى بالأفلام الأجنبية المتقنة، الثرثرة فيها قليلة، وتعتمد فقط على التخمين والتوقع من خلال

النظرة أو اللفتة. كانت أصوات الترولليات وأوجاع المرضى المتنوعة تعمل كموسيقىّ تصويريّة مصاحبة لحوارنا، أو كخلفيّة للصمت الذى نستسلم له أحيانا. بدا حسن مُستعدّا للحوار بشكل ما، فسألته:

- لماذا تساعدهم إذن. إن كان أبى أو غيره؟

- لأنّى لن أخرج من هنا فى وقت قريب. ولذلك فأنا أفعل شيئا مفيدا أفضل من تسكّعى أو قرقضة أظافرى أو انتظارى فتح البوابة.

- ولماذا أنت متشائم إلى هذا الحد؟

لم يرد.

استيقظ أبى بعد غفوة طويلة، أخذ رأسه يهتز وهو يقول كلاما غير مترابط:

- تذوّق الطعم. حلو يا سيف باشا. حلو يا باشا أليس كذلك!

وقبل أن أهمّ بأى استفسار خرج حسن ونادانى بالإشارة من خارج العنبر، ابتعدت عن أبى وأنا أحاول تذكّر ما ردده مرة أخرى:

- تذوّق الطعم. جميل جدا يا سيف باشا. حلو. أليس كذلك؟

عبرنا أنا وحسن الممر الطويل المؤدّى إلى العنبر، اجتزنا كذلك عنابر الدور كُلّه وحسن يسرع فى اتجاه الخروج، وكلمات أبى تطنّ فى أذنى "حلو يا سيف باشا" من يكون سيف باشا هذا، وهل اسم سيف يصلح لأن يعقبه لقب باشا، بل هل تصلح كلمة باشا كلقب أصلا فى هذه الأيّام؟

سألت حسن، وكانت إجابته مشروطة بأن نقف فى مكان براح، وعندما وصلنا للحوش الذى تتفرّع منه البوابات الكثيرة للمستشفى جلس حسن على النجيلة وقرفص، فقرفصت بجواره، وبدأ يشرح لى كل ما استغلق علىّ فهمه، وخلاصة ما حكاه حسن أن سيف باشا هذا شخص ما زال حيا يرزق داخل المستشفى، وأنه موكل إليّه تنفيذ العقاب بنفسه فى الحالات القصوى كما حدث مع أبى، فوق هذه البقعة التى نجلس عليها فى صرّة المستشفى دارت معركة شرسة خاضها أبى منفردا مع جيش جرار أوله مدير المستشفى الجديد وآخره سيف باشا، وبينهما طوابير بلا عدد من جمهور متنوع المشارب.

فى صباح تنفيذ الحكم أمر الباشا بأن يركض أبى لمسافة مئة متر بأقصى سرعته، وفعل أبى مرغما، ركض، ولمّا وصل عند قدمى صاحب الأمر، كان التعب قد هدّه، فوقف ينز كل الماء الذى نشعه جسده، وأمر الباشا بجلد أبى عشر جلدات وصاية، فخرج صاحب الردفين الكبيرين ورفع سوطه فى الهواء، ثم طرقع به على الأرض ثلاثا وهوى على ظهر أبى العارى، كانت كل جَلدة تحفر مكانها أخدودا، ويقع جلد مفرول على الأرض، ويمسك به الباشا ويقربه من فم أبى ويقول له وهو يضحك كمن أصاب دماغه خللا:

- كُلْ لحمك. سيقضى بعضك على بعضه.

ويتذوق أبى جلده ويسأله سيف باشا:

- حلو حلو أليس كذلك؟

ويرد أبي بصوت واهن لا يقوى على دفع جُملّة خارج حلقه:

– حلو يا سيف باشا. تذوّق حتى. جميل يا سيف باشا.

بعد هذا المشهد أمر الباشا أبي بأن يركض لمئة متر أخرى، فركض منهكا وهو يلفّ ككوكب يدور حول شمس، ثم توقّف أمام سيف الباشا.

وانتهى كل شيء.

منذ أربعين يوما وأبي قد تحوّل لجزءين انقسمت فيهما روحه، توقف جسده عند البوّابة فألقوا عليه القبض، وسقط رأسه فى مكانه. وبعد مرور أكثر من دقيقة على توقيع العقاب، توقف الحرّاس وهم فاغرون أفواههم، فى أيديهم كرابيج وسيور كراسى، وبقع من دم أبي تلمع على لحاهم المصبوغة بلون قشرة الرمان، باهتين، محملقين، فبعد جلبة استمرت طويلا توقّفوا عن الكلام، توقفوا تماما عندما رأوا رأس أبي، أبي أنا، يتكلّم وهو واقع بين أحذيّة الحرّاس، وبنفس نبرة الصوت يقول:

– حلو يا سيف باشا. جميل. تذوّق الطعم. حلو يا سيف باشا.

* * *

كان غياب جدّتك عن البيت له ميزات عدّة، أصبحتْ أمّك تحكى ما تشاء، وأصبحتَ أنت أكثر اتّساقا مع الحكايات، لدرجة أنك اكتشفت نفسك من جديد، فكل ما امتنعتْ أمّك عن حكيه أيام جدّتك قامت بحكيه بعد غيابها، كان ينفرط من عنقود القصص

فى كل ليلة حبّة، تبحبحتْ فى الكلام عندما أصبحت هى أقدم من فى البيت، لم يعد فوقها رقيب يُملى عليها ما يجب قوله، أو يحجب عنها ما يُدين من فضّ الأسرار، عرفتَ ملامح أبيك وبدأت فى تصوّره كائنا مكتملا، رأيته يتدفّق عبر القصص والمواقف التى بدت لك طازجة، كان فى الحكايات طويلا وله أصابع قوية وساعد يمكن أن يسند عليه جدار، وكان طيفه يخرج من أبخرة أكواب الشاى التى تنفحك أمّك إيّاها أثناء حديثكما.

منذ ذهاب جدّتك إلى مستشفى المجانين لم تزوراها إلاّ مرّة واحدة، وعندما رأيتماها كانت ملامحها قد تغيّرت قليلا إلى الأفضل، زاد وزنها بعض الشىء وأصبحت غير مهمومة بما يحدث خارج أسوار إقامتها، طبخت لها أمّك فرّوجة كبيرة، وأخذتْ معها فى شنطة مستقلّة بعض المقرمشات والبسكويت ومستلزمات الزيارة. عندما دخلتما كانت جدّتك جالسة على النجيلة ومقرفصة، تشد من الأرض بعض خصلات خضراء وتعبث بها، جريتما فى اتجاهها وحضنتّها أمّك، لم تكترث جدّتك، ولم تمد ذراعيها، قالت بصوت تاهت فيه مخارج الألفاظ:

تذكّرتونى بعد أسبوعين يا أولاد الكلب؟

- أنت لا تغيبى عن بالنا أبدا.

زدت أمّك، فرمتْ جدّتك الفسيلة الخضراء من يدها، وبعد أن ثرثرت بكلام غير مترابط صمتتْ، لم ترد على استفسارات أمّك

عن أى شيء. كانت تتأمّل أفرع الأشجار وسيقان الورود وأعواد الريحان التى يهزّها الهواء بحرّية، مالت معها كسباطة موز منتشية، غنّت بكلمات بطيئة مخدّرة أغنيّة "مال العزّال ومالنا" ثم استسلمت لنوبة من الضحك وراحت تُسرف فى طقطقة سنّتها الوحيدة المرشوقة فى لثتها. كانت تضيّق عينها وتزرّها أمام كل ما يتحرّك من حولها، وكأنّها رأتْ ما يستحق الملاحظة، كنت تشعر بأشياء تُضيء وتنطفئ فى دماغها، وتحس فى نظراتها بشعيرات تطقطق وتنفلت من مكامنها، أدامتْ إليك النظر بتأمّل، ثم قالت ورذاذها يبخ قميصك:

عُدْ إلى البيت يا لوح وخذ فى يدك أمك المهفوفة.

قالتها ثم أمسكت بجلبابها من الوسط وأخذتْ تلتوى كحبل معقود. كانت جدّتك التى تعرفها تذوب أمامك كقطعة جليد تتعرض لسطح ساخن، لم يعد لها الوقار الذى كان، فبعد أن استبد بها التعب والإرهاق تمددتْ على النجيلة، وضعتْ رأسها الصغير على فخذ أمّك، بعد قليل انتظمت أنفاسها وراحت تغط. فجلبت أمّك كومة نجيلة ووضعتها بديلا عن فخذها، ولّما استراح رأس جدّتك على الفسائل الخضراء انصرفتما.

كانت أمّك تتحدّث كثيرا عن صلة الأرحام، ولكنّها لم تستطع الصبر طويلا على خرف جدّتك، قاومتْ لمدّة ثم استسلمتْ، تحولتْ بعد انفلات شُعيراتها العقليّة لكائن آخر.

عندما عدتما إلى البيت أمرتْ أمك بأن يذبح عنزتها جزار ويُفرّق لحمها على الغلابة، وفى اليوم التالى باعت دجاجاتها القليلة وتبرّعتْ

بعشّها الخشبي للجيران، بعد مرور أسبوعين على غيابها كنت على وشك نسيان جدّتك تماما، وسألتَ نفسك، هل أرادتْ أمّك بوعى كامل التخلّص من كل متعلقات أمها؟ بهذه التصرّفات سيتم محو أثرها كُلّه فى ساعة واحدة، وكأن نزوة عقليّة حلّت بأمّك هى الأخرى، ولّما سألتها عن ذلك قالت:

جدّتك لم تعد موجودة.

باغتك الرد السريع، فجدّتك نائمة هناك فوق كومة نجيلة على بُعد عشرات قليلة من الكيلو مترات، تركتها والروح لا تزال فيها تدبّ، وقبل أن تتعمّق فى تأملاتك الفكريّة سمعت طرقا متواصلا ومزعجا على الباب، سأل الطارق عن اسم جدتك كاملا وهل هذا العقار يخصّها، أجبته بصحّة استفساره، فأخرج ورقة من دوسيه مدفون تحت إبطه وقال:

لابد أن يأتى أحد غدا للمصحّة لكى يستلمها، فقد تعافت.

بعد ساعات قليلة كانت جدّتك بينكما، تتحكّم فيكما من جديد وكأنكما عبدان لها، أضيف لجدّتك الجديدة قدما ثالثة، عصا بُنيّة تسند عليها دائما بنصف انحناءة، وأضيف لها أيضا حركات جديدة، كانت تقف على طراطيف أصابعها وهى تمسك بالعكّاز من المنتصف، توازن بين طرفيه وكأنها ستعبر قمتى جبل، وعندما وقعت منها العصا بغتة ورنّت على البلاط، ظلّت ترفرف بيديها، بدون عصا، وكأنها على وشك الطيران.

(7)

برغم كل ما يحدث، لم أجد راحة حقيقيّة إلا وأنا بالقرب من أبى، فلم يعد لى بالفعل غيره كما قالت أمى فى آخر كلماها. كان حسن لا يزال مقرفصا بجواره، وهو يحكى له حكاية لم أسمعها من أولها، ولّما طلبت الإعادة قال أبي:

– دعك من الحكايات. أنا أريد منك أن تعيد إلىّ ما أخذوه.

– ما أخذوه؟

– نعم. خيّروبى بين ما تراه الآن وبين ما غيّبوه. فاخترت الأول وأخذوا هم الثانى وحبسوه.

– حبسوه؟

تكرار الكلمة الأخيرة كان يستفزّه بشدّة. توقف الكلام عندما دخل الرجل مهيب الردفين وتمسمر أمام اللوحة التى اشتريتها قبل مجيئى إلى هنا، باعد بين قدميه ووضع يديه خلف ظهره فطالا بعضهما بالكاد وسأل:

– على ما يحتوى هذا البرواز؟

-

جذب الرجل اللوحة، فضّ عنها غلافها بقسوة، تأمّلها قليلا، وضع إصبعه السمين على ضفيرة منسدلة فوق كتف الفلاّحة، ولم يتكلّم، ثم انطلق وفى يده اللوحة، اقترب من النافذة، وجريتُ أنا من خلفه، عندما وصلتُ إليّه كانت اللوحة تترنّح فى الهواء، لمحتها وهى تسقط فى عربة المخلفات الطبيّة الخطرة.

فى كل لحظات ضعفى، لحظات الهروب من مواجهة خطر ما، كنت أتذكر ملامح أمى، كان مجرّد التفكير فيها كفيلا باستدعاء خيالات مريحة ومحببة إلى نفسى، تصورات عن فترة لم أعشها من قبل، فترة تعرفها الأحلام ولا تعرفها الحياة المحدودة التى باستطاعتى أن ألمس فيها الأشياء والناس، أنادى بأسماء أنساها فور انتباهى مباشرة، ثم أسرح وكأنّى رحت فى غيبوبة.

كنت قد نسيت الحكاية الأولى غير المكتملة لأبى. توجهت إليه وسألته عن الشىء الذى يطلب منّى استرجاعه، فلم يردّ، ولكن حسن رد:

- يقول لك يجب عليك استرجاع ما فقده منهم. أبعد كل ذلك لم تفهم؟

- منِ مَن؟

- الحرّاس الجدد.

لم أتوقف كثيرا عند كلمات حسن، ولكنّى سألت أبى مباشرة:

- ما الذى تريد استعادته؟
- ما فُقد مِنّى.
- وأين أجده؟
- فى المخبأ.
- وأين المخبأ؟
- خلف المخزن.

سعل أبى سعلة خفيفة ثم توقف عن الكلام، فقام حسن وجذبنى من ذراعى وقال:

- لابد أن يرتاح الآن.

خرجنا معا وتركنا العنبر، كانت الأقدام قد خفت من الردهة الطويلة، لم يكن هناك بشر على مدد الشوف إلا عامل وحيد يكنس المخلّفات ويمسح البلاط، حيّانا، قال "السلام عليكم" وأخذ يكمل ما بدأه من عمل مجهد وشاق.

جلس حسن فى البوفيه وطلب شايا، فجلست بجواره وسألته:

- كيف نستعيد ما يريده أبى؟

لم يجب حسن، شدّنى من يدى وقام، ولمّا خرجنا شرح لى سبب الخروج:

- هنا ليس للحيطان آذان. بل الحيطان نفسها آذان متنكرة.

- هل يتنصتون على كلماتنا؟

- وعلى نوايانا إن أمكنهم ذلك.

نزلنا دَرَجا خلفيا قديما يفضى إلى ساحة كبيرة، حوْلها أعمدة إضاءة خافتة، كانت الأضواء صفراء وشاحبة تُلوّن الأرض، وعمّال يدفعون عربات المخلفات الطبيّة الخطرة ويتجولون فى كل مكان، يلبسون زيا موحدا صارما فى دقّة درجة اللون الأزرق، وعرباتهم مملوءة على آخرها بالمخلفات الخطرة، لم تكن المحتويات سرنجات مستعملة فقط، ولا خراطيم نقل الدم ولا قطنا ملوّثا، ولكن فى العربات ترقد أشياء أخرى تشبه كراكيب منازل أرستقراطيّة، ملابس ملوّنة، تنانير وبناطيل جيز، توَكْ شعر، أحذية رجالى، زجاجات عطور، كتب بأغلفة فخمة، تختلط هذه المتعلقات ببقع الدم وشاش تضميد الجروح وعبوات محاليل فارغة.

ابتعدنا عن العربات وسألت حسن:

- قل لى. كيف يمكننا استعادة ما فقده أبى؟

- لماذا قلت يمكننا؟ تقصد يمكنك.

- وأنت؟

- وجودك هنا لساعات قليلة لن يجعل باستطاعتك استيعاب ما يحدث.

عندما اقتربنا من البوّابة الرئيسية جذب حسن ذراعى وعُدنا للساحة وأعمدة الإضاءة الخافتة. لم يعد يعنينى إلى حد ما إن كنت

سأخرج عمّا قريب أم سأظل هنا حتّى أموت، ما كان يحرك اهتمامى فعلا هو كيف سأفى بمطلب أبى، وهل أنا بالفعل قادر عليه؟

جلس حسن على حافة نافورة من نوافير كثيرة، قال إن مدير المستشفى اشتراها من بلاد برّة، ثم أضاف:

- هل تعرف هذا المبنى؟

كنّا بدون وعى كامل قد أصبحنا أمام مبنى يشبه فيلا قديمة مفتخرة، تحوطها حديقة صغيرة وأنيقة. كان منظرا جميلا، لكنّى لم أستخلص شيئا من سؤاله.

وأجاب حسن:

- إنه قصر أمير قديم. وهو البذرة لإقامة هذا المستشفى الكبير.

- ربما يكون كلامك صحيحا يا حسن. ولكن ما دخل هذا بمشكلتنا؟

- خلف القصر يوجد المخبأ.

- فلنذهب إذن خلف القصر ونبحث عما فقده أبى.

مللت من جذب حسن لذراعى، لا يريد أن نستمر فى مكان بعينه، لا نستقر على حال واحد لأكثر من خمس دقائق، وكأن هناك من يراقبنا بشكل دائم. أشار حسن إلى رجل مهيب الكرش واللُّغد، طويل كعفريت القمقم، ملامحه عبوسة ومرعبة، حاول أن يبتسم فخرجت الابتسامة أشدّ رعبا:

- عليك أن تجتاز هذا الفيل أولا

قال حسن.

- وبعد ذلك؟

- نتعرّف على ما فقده أبوك.. ونُعيده.

أصابتنى كلمات حسن بالخيبة، ولو أضفت لذلك منظر الرجل وحشي الهيئة الذى كان علينا اجتيازه لأصبحت المهمّة شبه مستحيلة. عندما اقتربنا من مكان الحراسة تظاهر حسن بأنه لا يعرفنى، تأخر خطوة واحدة عنّي، بدا وكأنه من بلد آخر، بعد خطوات قليلة تبخرت شجاعتى التى كنت أتباهى بها منذ قليل. تسرّبَتْ شيئا فشيئا حتى اختفت تماما، واختفى حسن، وصرتُ جبانا.

* * *

توقف ولع أمّك بالحكى عندما عادت جدتك إلى البيت، عدتما مقيدين مرّة أخرى بما يليق بمزاجها، أول ما وصلتْ سألتْ عن دجاجاتها وعنزتها، وقبل أن تجيب أمّك وقفت جدّتاك فى وسط الصالة وتهيأت تماما لكيل السباب، رفعت حاجبا واحدا وأمسكت بجلبابها من الوسط وهبّتْ فيكما:

بعتوهم. هه؟. شفطتوهم. هه؟ قلتم ستموت. أنا قاعدة على قلبكم وسأشيّعكم جميعا إلى القبر.

بعد حبستها فى المستشفى لعدّة أسابيع تعلّمتْ بعض حيَل المجانين، لساعات طويلة كانت تردد كلمات بعينها، من طول التكرار كانت الكلمات فى أذنك تفقد معناها، ظلّت مرّة تعيد وتزيد فى جُملة لم تترك حلقها "الجثّة يأكلها الدود..الجثّة يأكلها الدود.. الجثّة يأكلها الدود.. الجثّة..."

مدّت جدّتك يدها ورفعتْ دُميّة كبيرة مصنوعة من القش، تعصّبتْ وزمّت شفتيها ككيس نقود، زبدتْ ونفرت عروقها وهى تمزّق الدمية، خلعتْ رأسها عنها، فصلته تماما، وألقت به فتدحرج بالقرب من قدميك، قالت وغبار القش يلف رأسها الصغير:

اشتراها أبوك لك وأنت فى اللّفة، والآن أصبحتُ شحطا ولا يليق أن تلعب بها.

لو أننا لا نزال فى العصر الذهبى للمؤرخين لكانت سيرة جدّتك قد ملأت آلاف الصفحات، ربما كان فيها ما يُغرى أكثر من حكايات الملوك والأباطرة، كان تكرارها للكلمات يحتاج لقاموس جديد، كأن مخّها أصابه العفن، فتشابك الكلام على لسانها مُربك لدرجة المتاهة، ولم تكن وعكتها الصحية هى السبب فى جَلبتها؛ بقدر ما كانت تبحث عن مكانة تليق بها بعد الغياب.

حاولت بالاشتراك مع أمّك تغيير خطة علاج جدّتك، لم تكن على يقين بأن داءها يمكن علاجه، ولكنّك برغم ذلك فعلت الكثير من أجلها، تحمّلت عناء البحث عن شيخ صالح يعالجها بالقرآن، بعد

العثور عليه جاء يرفل فى عباءة جوخ وعمامة مُنظّمة، حاولَ معها لأكثر من نصف يوم، قرأ ما يحفظ ونقعَ أحجبة وأقام شعائر، عزّم وبخّر حتى احتقن وجهه، أخذ الشيخ يُلقّن جدّتك بكلمات لفظتْها جميعا، ثم التفتت إليه وسبّته بأقذع الشتائم، تعرّى الرجل من هالاته بلسانها الحامى، انسحب من سكات وخرج، ومثلما جاء ذهب، بعدما فشلتْ تراكيب العقاقير ومنقوع الأعشاب وكئوس الحجامة فى تخفيف آلام جدّتك هدأ حالها، ذهبت لسريرها الحديدى أبو عمدان، أعدّت نفسها لمشهد احتضار تقليدى، نامتْ وشدّت أمّك فوقها ملاءة بيضاء مغسولة ومكويّة، شعرها المحنّى بلون قشر البرتقال هائش ومنثور على الوسادة، مركون بجوارها كومودينو مرصوص فوقه بقايا طعام وعلب أدوية وزجاجة مياه وطبق عسل أسود، فوق مقبض دُرجه مسبحة قديمة مربوطة تعود لأجيال متعاقبة من الأسلاف.

لم يكن حول جدّتك أحد يقلق بسبب الميراث، وذلك لسبب بسيط جدا، أنه لا يوجد ميراث أصلا، لا شيء غير حكايات عن عز كان.

كانت أفعالها الغريبة مجرّد محاولات للتمسك بالحياة ومقاومة لحظات الاحتضار، ولكنّك رأيتَ أن تصرفاتها التى تحاول بها المقاومة تُقرّبها أكثر من ميعاد الرحيل، وبرغم ذلك لم تستشعر فى نظراتها أى يقين بأنّها تعيش ساعاتها الأخيرة.

أصبح لعابها كالغراء بين شفتيها المواربتين، وعظام وجهها تشبه أرضا شرقانة، كانت عينها يقظة وتدرى كل ما يدور حولها، إذ إنّها قبضتْ بسهولة على بقّة تتمشّى فوق كتف أمّك وفعصتّها بين إصبعيها، وكانت كذلك تتابع بقايا الأطعمة على الكومودينو وتعرف محتويات أدراجه من بصّة واحدة.

سحبتْ جدّتك شلتة مزّيّة وحشرتها خلفها، عدّلت من وضعيّة ظهرها ورجعت بجذعها حتى أصبحت كالجالسة، ثم نظرتْ إليكما مليّا وقالت برصانة لا ينقصها التركيز:

لماذا تجلسان هكذا من حولى؟

ثم أصبحتْ ملامحها أقرب لخريطة تحتاج لمستكشف صبور.

(8)

عندما أتذكّر نفسى وأنا خارج البوّابة أشعر بأنّى كنت غاية فى البراءة، وربما العبط، كيف استسلمتُ لهم حتى حبسونى فى هذا المكان؟ أنا لا أعرف هنا إلاّ حسن، وحتّى حسن، يعتبر بالنسبة لسذاجتى شخصا واعيا برغم غموضه هو الآخر

لم أكن أستطيع العودة لأبى وأنا على هذا القدر من الإحباط، وقفتُ مع حسن فى قلب الساحة الكبيرة خافتة الإضاءة، ثم جلسنا نشرب شايا، لم يكن أحد يصنع الشاى فى المستشفى إلا عاملة مترهلة وملثّمة، كان كل ما فيها أبيض وكأنها نبتت من كومة قطن، لماذا يعتقد الحرّاس أن اللون البيض ملائكى؟ كان لونا يمثّل لى وجها صريحا للكآبة، فهو لون أثواب اللحود، والأحلام الهلاميّة التى لا تقف على أرض واضحة ولا تُعبّر عن شيء محدد.

لماذا أحاول أن أفهم كل شيئ، لماذا أضغط على أعصابى بهذا الشكل؟ هل لأنّى وجدت نفسى فجأة فى محيط أناس لا أعرفهم؟ ألا

يكفى أنى فى كنفهم أصبحتُ بعيدا عن تفاهات الحياة بالخارج، فهنا لا وجود إلا لما يحدث بالفعل، مهما كان قاسيا فإنه حقيقى، فجميع المتع هنا لا تخرج عن وجبات لذيذة تُطهى للحرّاس أو يطهونها لأنفسهم، ثم بعد ذلك إقامة الشعائر وبدء أحاديث لا تنضب عن أشياء لها يجهلون، ثم النوم والانزلاق للخدر والأحلام التى لا حدود لها.

سِرتُ وأنا لا أرى من الناس إلا أجرامهم، لمحت أحد الحرّاس نائما على ظهره وكرشه قابب نحو السماء، كانت شمس الغروب تلوّن الأرض بصفرة قابضة، تابع الرجل سحابة تبتعد ببطء وقال كمن يناجيها:

– الملك لك. لك.

بعد خطوات قليلة اقتربتُ من بوّابة تقف عليها حراسة صارمة، عبرتْها عربات متقاطرة محمّلة بكراتين أدوية وعلب عصائر وقدور بها لحوم مطهوّة يلقّ فيها المرق، وزّع الحرّاس ما بالقدور على بعضهم، ووزّعوا الأدوية على النزلاء.

اقترب منّى رجل طويل بغير انحناء، عريض بغير ترهّل، ساعِده فى صلابة فرع كافور، كفه سميك وأصابعه فى حجم أصابع موز، لم يكن منشغلا بما يفعله الحرّاس من حوله، ولكنّه كان يحفر بقادوم صغير ويرمى بذورا بيضاء كحب الفاصوليا فى الحُفر، بعد انتهائه من نثر بذوره قام واستلّ من جراب يحمله مقصّا كبيرا أطول من ذراعه، ثم وقف يقصقص ما زاد عن الأشجار القصيرة التى استدارت وظهر فى منظرها شىء من الجمال. اقتربتُ منه وسألته:

- ماذا تفعل؟

- أعمل بمهنتى.

- وما هى مهنتك؟

- بستانى.

قال ويده لم تتوقّف عن العمل، بعد انتهاء تدوير الأشجار، جثا على ركبتيه وأخذ يضبط دوائر النجيلة، كانت محاولاته جادة ومرهقة لجعل الأرض منظّمة التعاريج كأشكال هندسيّة، مثلثات ودوائر وسنبوكسات تبدو متناغمة، كان كأنّه يرسم الأرض ويعيد تشكيلها بطريقة تناسب شيئا فى نفسه، وكنت معجبا بالفرجة عليه لدرجة أنستنى العربات التى تتدفّق عبر البوّابات، نسيت أيضا الرجل البدين النائم على ظهره وهو يناجى سُحب السماء.

سألتُ البستانى بعدما وجدت شيئا يستحق التأمّل:

- لماذا أنت تعمل وهم راقدون هكذا فى بلادة وكسل؟

نظر الرجل هائل الجِرم إلىّ مليّا، وأخذ يتابع الأقدام وهى تدق الأرض من حوله، ثم قال بشىء من الحدّة:

- لا تقل عنهم هكذا.

حيّرنى رد فعله غير المتوقّع، لماذا يدافع عمن ينامون ليل نهار؟ أجبرتنى حدّته على التوقف عن إصدار الأحكام المتسرّعة ومحاولة تأمّل كلماته. فطرحت عليه السؤال بصيغة أخرى:

– لماذا تدافع عنهم وهم لا يعملون؟

– دعاؤهم لنا يكفي. فنحن نعيش ونجد اللقمة بسبب بركتهم وبِشرهم.

– يمكنك أن تجد اللقمة بدونهم.

– لا

– ولكنّهم لا يعملون.

– هم يعملون فى أصعب المهن، وكل ما يتمنّاه شخص عادى مثلى هو الوصول لمثل ورعهم وتقواهم.

بدا على الرجل صدق وخشوع. طأطأ رأسه وشخط فىّ كمن فاته موعد هام:

– سامحك الله. درس الوعظ بعد العصر. الوعظ بعد العصر.

جرى البستانى فهُيّئ لى أن الأرض تهتز من تحتى، بعدما غاب الرجل الورع عن نظرى قب فى نفس المكان واحد من الحرّاس، كان كالخارج من تحت الأرض، اقترب منّى دون أن يتكلّم، داس على الدوائر والمثلثات وسنبوكسات النجيلة التى أجهدت البستانى فى رسمها، ثم نام، بطّطت نومته العشوائيّة الحشائش وجعل مثلثاتها تتوه مع دوائرها، بعد أن فعل الرجل ما عليه فى إفساد المنظر الجمالى للنجيلة اختفى عن الأنظار هو الآخر

وقبل أن أحاول تفسير ما فعله نط حسن أمامى كأراجوز مربوط فى "أستك"، كنت كمن يشاهد سينما خيالية، الجمهور فيها شخص واحد. تتتابع الأشخاص أمامى وتمر الأحداث بسرعة، كأنّى قناة وهم الماء، ينسابون من خلالى، بدون تحكّم منّى أو منهم. قال حسن الذى أصبحت أتوقّع مجيئه فى أى زمان ومكان:

- لماذا كنت تتحدّث معه؟

- مَن. تقصد البستانى؟

- نعم.

- هو رجل طيب. يرسم النجيلة ويشذّب الأشجار وينثر الحَب.

- إنه ليس طيبا. لو عرفت منْ هو ربما غيّرت رأيك.

تتبّعت عينى أثرَ البستانى وكأنّى أرى خيالا منه تبقّى، لم تكن مفاجآت حسن تروق لى فى أغلب الأحيان، لأنها تضيف دائما معلومة لا أستعدّ لاستقبالها. سألته وأنا أحاول رسم ملامح لامبالية:

- منْ يكون؟

فاقترب منّى حسن، تلفّت حوله ثم قال وكأنّه يستعد لأن يصير هلاما:

- من كنت تتحدّث معه منذ قليل هو سيف باشا بذات نفسه.

* * *

وتفكّر فى الهروب من هذا البيت الكئيب، فقد كان مجرّد التجوّل فى ملامح جدّتك يُشعرك بالرهبة وشيل الهم، تشبه ملامحها كرنفالا لإحياء ذكرى أزمنة مضت.

قامت من فراشها وهى التى لم تفعل ذلك منذ أيام، فتحتْ ضلفة دولاب وحيدة وأخذت تتفحّص تنّورة قديمة اعتلتها الأتربة، أخرجتْها وحبكتْها حول خصرها، تأملتْ الكرانيش والتخاريم للحظات، ثم خلعتْها ووضعتْها مكانها لّما أحسّت بوجودك قريبا منها، ذهبتْ لسريرها الحديد أبو عمدان مرّة أخرى وراحت فى النوم بسهولة.

كان وجود جدّتك معك فى مكان واحد أمرا تحاول منه الهروب، شعرت بأن عمليّات معقّدة داخل دماغك تحظر عليك التفكير، لطالما حاولت تأمين نفسك داخل هذا البيت، أو بعبارة أخرى، حاولت تأمين عقلك من الغياب، اجتهدت ليكون وعيك حاضرا وسط هذا التزاحم المربك، لم تعد تملك نقاء اللغة التى تمكّنك من المقاومة، ولم يعد فى استطاعتك أن تُعبّر بواسطتها عما يدور فى نفسك، تنصاع أحيانا للمناورات اللغويّة وتستسلم لها.

لم تعد الثقة تعنى بالنسبة لك ما كانت من قبل تعنيه، وتعاليم الدين أيضا، وقفت فى منطقة رماديّة باهتة، تاهت منّك حزمة التقاليد الصارمة التى اجتهدتْ أمّك فى تثبيتها داخل دماغك. توقف

بحثك عن مبررات أخلاقيّة لما تراه حولك من أحداث، كنت تبحث عن صيّغ جديدة تناسب فقط ما تشعر به من أحاسيس.

اقتربتَ من سرير جدتك، تأملت ملامحها جيدا، لوهلة شعرت بأنك لا تعرفها، الاقتراب الشديد من أى شيء يُحيله إلى أجزاء ضعيفة الترابط. أشارت لك بإصبعها كمن تستدعى أحد خُدامها، أملتَ أذنك ناحية فمها، فقالت بصوت ضعيف متحشرج:

نفسى فى المشبّك يا مقصوف الرقبة.

استهلكتَ وقتا طويلا حتى استوعبتَ ما قالت، وأثناء هذا الانتظار دبّت يدها فى عبّها وأخرجتْ جنيها غريبا، قديم الشكل مهلهل الحواف وضِعف حجم الجنيه فى هذه الأيام، تناولته منها وخرجت، لا تعرف من أين ستشترى لها المشبك.

وبعد أن توالت تصرفاتها غير المترابطة، حدث ما أكد لك بأن نهايتها تدق الأبواب بقوة.

(9)

ما قاله حسن غيّر الترتيبات فى دماغى، إذ لم أتخيّل أن الرجل الذى قسم أبى لرأس وجسد يمكن أن يكون بهذه الرقّة، يعتنى بالزرع ويُقلّم الأشجار ويستمع لدروس الوعظ أيضا، عندما نطق حسن باسمه أحسست بأنّى معدوم الحيلة والتصرّف. استعدت بهدوء ملامح الرجل لأعيد تشكيلها فى وعيى من جديد بما يناسب شخصا شريرا، كان يعتمر عمامة ريفيّة ويلبس جلبابا بلديّا يرتدى من تحته صديريا وينتعل بُلغة، كان منظره العام كأى فلاّح ميسور شريف.

ولكنّى بعد كل هذه المتاهات رأيت بأنّى حِدت عن الهدف الرئيسى لمجيئى إلى المستشفى، أبى، لقد طلب منّى صراحة أن أبحث عما ضاع منه، لم يطلب منّى قِتالا أو سفرا بعيدا، لكنّه طلب ما أخذوه، جزءا منه، الجزء الأكبر، بل كُلّه تقريبا، ولو كان ما تبقى منه بالفعل ينعم بالحياة ولم يدفنوه، فهل سيمكننى التعرّف عليه؟ ماذا كان يلبس أبى وقت توقيع العقاب عليه فى ساحة المستشفى؟ هل كان يُدفئ رأسه بالزعبوط القطن الذى لا يزال يلبسه حتى الآن، هل

يناسب وجهه السمين جسدا مترهلا؟ وبنفس القوانين، هل ينموان مع بعضهما كما كانا من قبل؟

غطى الظلام المستشفى إلا من أعمدة إضاءة خافتة، ونور آت من بعيد على مدد الشوف، فالكوبرى أمام البوّابة لا يزال مُضاء ببعض كشّافات غابشة. لمحتُ سيف باشا يمشى ببطء، وفى يده سبحة طويلة تكاد تلمس الأرض، لمّا رآنى تائها ولا أستطيع التكلّم وقف إلى جوارى وقال:

- مالك؟

اتّخذ شكله الذى يناسب مكانته فى ذاكرتى، كنت لا أزال أراه رجلا طيبا ونبيلا، توقف الرد فى حلقى عندما كرر سؤاله:

- مالك؟

- هل أنت سيف باشا حقّا؟

- أسألك فتردّ علىّ بسؤال؟ وبرغم ذلك سأجيبك. نعم اسمى سيف. وباشا هذه مزحة أطلقها علىّ مدير المستشفى وذهبتْ لحالها.

- وهل أنت من يُقيم العِقاب؟

- أسئلتك كثيرة.

قال وهو يبتعد عنّى كشبح مسّنى تأثيره ثم همّ بالانصراف. جذبته من ذراعه ليظلّ معى قليلا، فقال بعد ابتسامة بددت هواجسى:

– فى هذه الدنيا من يستحقّون أن نزرع لهم الورود، وهناك أيضا من يستحقّون قطع الرِقاب.

أمسكت بكفّه الكبير وفردت أصابعه القويّة ونظرت فيها مليّا وسألته:

– هل يمكن لهذه اليد الطيّبة أن تتلوث بالدم؟

رد وهو يرعش عينيه بخشوع رقيق:

– اليد الطيّبة لا بد أن تتلوث يوما ما بالدم.

– وماذا فعل أبى لتشطره وتجعل كل جزء منه فى واد؟

– من يكون ابوك؟

– سعيد إبراهيم.

أخذت ملامح الرجل هيئة جادة والتفت إلىّ بكل جسده، ثم أخذ شهيقا عميقا وقال:

– بص يا بُنَى أنا لا أعرف أسماء. ولكنّى نذرت نفسى لله، أفعل فقط ما تُمليه علىّ خلقتى المتديّنة.

فقلت ودماغى منشغل بهدف واحد:

– ألا تعرف شيئا عن أبى؟

لم يرد سيف باشا، أخذنى من يدى كصاحب محل يهمّ بتفريج زبون على بضاعته، سرنا فى طريق طويل يتبعه ممر، اجتزنا العنابر جميعها، عبرنا أعمدة الإضاءة التى لا تُضىء، وقفنا أمام بوّابة داخليّة لكنّها

كبيرة جدا مقارنة بأبواب العنابر، كنّا بالليل، وفى الليل تخفّ الروائح، تتسكّع رائحة البيتادين والمطهرات. رأى الحارس ملامح الباشا تقترب فسحب الباب الحديدى الثقيل ولفّ على بكر مزروع فى الأرض، كان مثبّتا بعجلات كبيرة فى حَلق حديدى بعيد المنال. ما أن اجتزنا البوّابة حتى رأيت نفسى فى مكان غريب، تتحرّك فيه أجساد كثيرة بلا رؤوس، ترقص كديوك مذبوحة، لم أستطع الانتظار طويلا فسألت سيف باشا:

- لماذا تتشنّج هذه الأجساد هكذا؟

- هى لا تتشنج. بل تَذْكُر

كنت أنا وسيف باشا فقط نحمل رؤوسنا فوق أكتافنا، أما الناس بالداخل فينعمون بالحركة فى كل الاتجاهات لكنهم مقصوفو الرؤوس، عبرنا الأجساد فظهر الرجل مهيب الردفين، وأصبحنا ثلاثة بجميع الكماليات، كان يؤمّهم فى الصلاة، وقف بين أجساد تشبه بعضها البعض حد التطابق، وفى مكان العنق المجذوذ تشرئب عروق بارزة ومُنفرة. طلب منّى سيف باشا بأدب أن أقوم للوضوء ففعلت، وعدت لأجده واقفا بين الأجساد كشخص تقى يحرص على إقامة الشعائر، صلى خلف الإمام مهيب الردفين، ثم جلس كأى مؤمن صالح يستمع لدرس الوعظ.

كانت الأجساد فاقدة الرؤوس مجرّد كُتل من لحم، كصناديق لا توحى بشيء، لا يتكلّمون، ولا أعرف بأى عضو يسمعون، وكيف

يتأففون من الروائح الكريهة أو يثنون على أريج عطر، كيف يندمجون مع بعضهم؟ هل أصبح لهم مجتمع مستقل فيه يعيشون ويشعرون؟ بعد تسابيح المساء وقف سيف باشا وأشار لى بطول ذراعه على الأجساد التى تتحرك فى كل اتجاه وقال:

– انظر انظر جيدا.. إنهم يمكنهم التكاثر وإنجاب ذريّة بنفس الشكل، بدون رءوس.

كانوا يجلسون معنا ورؤوسهم فى أماكن أخرى. أبدان تَحَكّمها فى نفسها غير محسوب. انشغلتُ بِعَدّهم، واحد، اثنان، خمسة، خمسة عشر وقف الباشا وربت على كتفى وقال:

– لا تتعب نفسك، أربعة وستون بدنا.

– وأين أبى بينهم؟

– من يكون أبوك؟

– سعيد إبراهيم.

– أنا لا أعرف أحدا بهذا الاسم.

* * *

ماتت أمّك على غير توقّع بالمرّة، فى لحظاتها الأخيرة أوصتك بأن تذهب لزيارة أبيك، وصفتْ لك المستشفى وطريقة الوصول، وظلّت تؤكد عليك وهى تمد يدها بالساعة القديمة أم عقارب، والتى تعمل بنبض القلب:

لم يعد لأبيك غيرك. اذهب إلّيه ووده.

وبقيت جدّتك تتفنن فى إزهاق روحك بالبطىء، فطلباتها لا تنتهى ولا تستطيع التوفيق بين ما تقوله وما تريده بالفعل. قبل أن تفيق من صدمة موت أمّك، كانت جدّتك تجرى وراءك وفمها مفغور قاصدة ذراعك،جريت منها مرّات واصطدمت بالكومودينو، وقعت بقايا الطعام وفوارغ الأدوية وطبق العسل الأسود، تركْتها وأنت تُسرِع بخطى واسعة إلى باب البيت.

بعدما نجحتَ فى الإفلات من براثن جدّتك طَنّ بداخلك سؤال كأنه الوسواس: لماذا ستذهب إلى المستشفى لتبحث عن شخص لا تعرفه؟ حاولت أن تبعد شبح اليأس قدر استطاعتك. وبما أنّ أمّك قد تركت العالم منذ ساعات فقد حاولت أن تفعل ما يتناسب مع شخص لم يبرد جثمان أمّه بعد. على الأقل تنفّذ وصيتها، فقبل أن تُغمِض عينها قالت فى تحديقتها الأخيرة:

أبوك يرقد فى المستشفى وحيدا. اذهب إليه. ستتغيّر حياتك عندما تتعرّف عليه.

ثم صمتتْ بعد ذلك للأبد.

غيّرتَ ملابسك وخرجت، وفى الميكروباص سألت السائق عن طريق المستشفى، قال أنها بعد آخر الكوبرى بقليل، وأضاف وهو يركن لكى تنزل؛ أن المستشفى قد تغيّر كثيرا، فقد تولّى أمره حرّاس جدد.

وما أن لمست قدمك الأرض حتّى داهمتك همّة مفاجئة لعبور البوّابة الكبيرة السوداء.

القسم الثاني

الخروج

(1)

أين أنا؟ أنا، للكلمة وقع الوجود الفعلى، على غير ما أشعر به بالمرّة، رقبتى لا تزال مدفونة بين منكبىّ، تحمل رأسى، رأسى، تسلل إليه شعاع ضوء، شقّنى، فانفرجت رؤية كخيوط حليبيّة تجتاز سديما أسود.

أصبحتْ السماء قريبة، تكاد تلمسها يدى، هل صِرتُ عملاقا أم تحوّلت السماء لخيمة؟ أول ما فتحتُ عينى رأيتُ النجيلة تلمع فى الشمس تحت قدمىّ، كمنثور ذهب تُلقى به أشعة بلا حساب. بدت الأشجار أكثر طولا من المعتاد، كأنّها تحاول الابتعاد بأغصانها عن روائح المستشفى الثقيلة، هل ارتوت جذورها بالمحاليل وتشبّعت بعظام الموتى؟

حلّ يومى الثانى، وأنا قابع وراء البوّابة، وعندما أيقنتُ أن الخروج من هُنا أصبح فكرة لا طائل منها، قلّتْ مقاومتى بشكل كبير، كنتُ أحاول التمسّك بحياتى السابقة، تمددتْ ذاكرتى حتى كادت أن تصبح كل شىء، أما ما أنا فيه فلا يخرج عن أحاسيس مفرطة فى الخدَر، أشعر بأنّى فى حلم طويل، صور متواصلة تتقافز إلى ذهنى بلا تحكّم، يُهيئ لى رؤية أشخاص لا يقتربون منّى بشكل كامل، يتحدثون وكأنّهم فى بحيرة، تتكسّر أصواتهم، وتهتز صورهم، وأرانى عبرتُ

الواقع لا البوّابة، وصِرتُ فى حلم، ما لم أكن أستطيع تحقيقه هناك فى أرضى البعيدة يمكنه التحقق هُنا، حيث الأرض غير مستوية وفاقدة للجاذبيّة، والرؤى تزخر بالألوان والرموز، ومن أمُرُّ عليهم ليسوا سوى كائنات لها حقائقها الخاصة، حقائق ربما كانت تحدث على أسطح كواكب أخرى، من حولى يتحرك الناس بالتصوير البطىء، لا يعلّقون فى معاصمهم ساعات، يتجوّلون من حولى بلا أبعاد، كرسوم بالماء فوق حائط شفّاف.

كان الهواء متجمّدا، لا يهتز غصن، ولا تطرف ورقة شجر. جفنىّ، كأن فوقهما رصاص مصبوب، منجذبان لأسفل، وعينىّ بين الرؤية والغيبوبة تائهتان، وغبار معلّق فى الهواء، يتسرّب ضغطه لحاسة شمّى، يحشو حلقى، مشبّع بروائح العطانة، دمعت عينى وسال من أنفى المخاط. أسندتُ ظهرى على جذع شجرة من الأشجار العالية خلفى وغِبتُ، أصبحتْ عينى دائريّة الرؤية، والرؤية فيها دخان أبيض محبب لتغذية الكسل، يدعمه ضباب يُعطى الدخان بُعدا فلكيّا، والضباب فى زجاجة، والزجاجة كأنّها كوكب شفاف يلف فى المدارات. مرّت الأحداث أمامى كمراكب طيفيّة، تمشى فى بحر مستدير، على حوافه ثلج هش حديث التكوين، مفروش على شكل كثبان. الآن، كل ممنوع يمر ويعبرنى، يناجينى برقّة المراودة لا عنف الحُرمة، الكائنات التى تخطر أمامى رقيقة وغير مفضوحة، لا تعرض نفسها بقدر ما تنساب كتسلل الأكسجين بين عناصر الهواء، فى هذه الحياة كانت ممارسات لمس الأجساد وعادات قطف الزهور متكررة، بلا عدد، بلا ثمن، حتّى القتل، لا يُشكّل نهاية، فالكائنات المطعونة تظهر فى صور جديدة وكأنّها تلعب، تعود للحياة وهى أكثر قدرة على فهمها.

كان اليوم على وشك الانتهاء، هل نمتُ كل هذا؟ صحوتُ على إحساس قوى بالجوع، أريد أن آكل شيئا مسكّرا، مشبك مثلا، شمس الظهيرة كانت قاسية، والرطوبة تجعل العرق يئز كالصمغ. لم أغيّر ملابسى طيلة الأيّام الفائتة، هل هى أيام منفصلة، أم كانت ملضومة فى أسابيع، والأسابيع تابعة لأشهر، والأشهر فى ذمّة عام واحد منصرم، بالخارج، خارج البوّابة كنتُ أهتم بعيد ميلادى، كل سنة على ما أعتقد، سنة، نعم، كل سنة وأنت طيب، كانوا يقولون وهم يحملون الهدايا وصناديق المقالب الصغيرة.

لم أتم ساعة مكتملة النعاس، شاركتُ حسن سريره الحديدى الصغير، وغطاءه المهلهل منهوش الحواف، وبرّاده متعدد الوظائف، كانت حياتى داخل البوّابة كأنّها حدثت بالفعل من قبل، ولا أقصد بكلمة بالفعل أن لها حقيقة تاريخيّة، ولكنها حدثت هناك، فى حياة أخرى مفترضة لم يأت دورها بعد. كنتُ أعصم نفسى من الاعتراف بواقعى عن طريق اختراع بدائل جاهزة، هذه طريقة تريحنى، تتوافق مع خلقتى الخياليّة الحالمة، كنت أرسم سيناريوهات متعددة لما يمكن أن أفعله، ولا أفعله، فأكون بذلك قد جنيتُ الحسنيين، تملكنى إحساس الفعل دون أن أفعل، وكذلك أهرب من العقاب لو كان الفعل مشينا. لطالما جعلت من خيالى مملكة لا تحدّها حدود، أسبح فى الماء وأربط قارتين بفتلة، وأطير فى الهواء متتبّعا ضوء النجوم، وأزحف تحت الأرض لأقتفى أثر أسلافى. باختصار صِرتُ أختار حياتى التى أرغبها أولا، ثم أُجبر الأحداث أن تتبعنى.

لوهلة، تركّزتْ فى دماغى فكرة الخروج، ولكنّها كانت مرتبطة بأبى، بالأدق، مرتبطة برغبة عارمة فى استعراض بطولى أمام أبى، فذلك لا يقلل أهمّية عن فكرة الخروج ذاتها، أن يعترف أبى بنجاحى فى شيء ما مهمّ، فالآباء غالبا لا يعترفون بتفوّق بنائهم على نحو لائق.

لطالما أحسستُ بأنّى أتفتت، أفقد رزنى وثباتى، تُغير على خيالى بعض الأفكار المتشائمة، فقبل المجى إلى هُنا كنت أشعر بأنّى كريستوفر كولومبوس، بل أفضل منه حالا فى بعض لحظات الشرود المتفائلة، فهو اكتشف عالما جديدا، ما أنا، فاخترعته، ولكن بعد دخولى من فتحة البوّابة شعرتُ بأنّى جندى بائس زجوا به فى حرب خائبة لا تناسبه، كنتُ أرى جميع المشلد وكأنّها فيلم سينمائى نُزِع عنه شريط الصوت، فأعاد مخّى تدوير الأحداث من خلال الصورة فقط. وبدأتْ أذنى تتنازل ببطء عن خصائص السمع، وعينى تجاريها فى ابتلاع كل ما يقابلها من مناظر وألون.

غمرنى العرق شيئا فشيئا، شعرت بدفء ولفحنى هواء، بارد ومنعش، مرتْ علىّ بعض شخصيّات عرفها، وبعض ناس لا أتذكّر ملامحهم، مروا وهم يرفعون بيارق ملوّنة، وهُيئ لى بأنّى اندفستُ بين أجسادهم المتلاحمة، إذ كانوا يغلقون البوّابة التى دخلتُ منها ولا أتذكرها جيدا. من ثغرة صغيرة رأيتُ نورا، ونتفة من ملابس رجل الأمن، قاومت الغرق فى الأجساد وكثافة اللحم ورائحة العرق، وفُزتُ بعد جهد بتوسيع الثغرة قليلا، حتى أصبحتُ بالخارج، أنا الآن بالخارج، وبعد أن تركتُ البوّابة الكبيرة السوداء قال لى أحد الحرّاس قبل انتعاشى بفرحة النجاة:

"تَذَكَّر يا أخينا. إذا ذهب الألم ستذهب معه الشهيّة"

لم أعره أدنى اهتمام، انشغلتُ فقط بتخيّل نفسى وأنا خارج البوّابة مرّة أخرى، حاولتُ نسيان كل شىء، كأنّى كنت فى عربة قطار وجاءت محطّة النزول، بالطبع سأنسى الرُكّاب القُدامىّ بسرعة، كانت الأفكار فى دماغى لا تزال تنفث بخارا، ولكنّى برغم ذلك حاولتُ نسيان كل ما مر من أحداث.

بالخارج، ومن زجاج نظّارة مغبّش حملق فىّ شخص لا أعرفه، كانت نظراته ثاقبة وإشاراته عصبيّة وفى يده جريدة، لم تكن المصابيح تضيئ بالخارج، فصنعتْ الظلال غياما عابرا، ومن الناس تكوّنتْ كُتَلْ تروح وتجيء، روائحهم تتسكّع وتلعب مع الألوان، وأعمدة الإضاءة ترتجف كعين مطروفة، تشاور نفسها فى نيّة الإضاءة، حواف الأرصفة ظهرتْ على خجل، وأطياف باعة البيض والصميط والزيتون، الرائحة الوحيدة التى تشكّلت وامتزجتْ هى رائحة الانتصار بإفلاتى من قبضة الحرّاس.

ابتعدتُ نسبيّا عن البوّابة، والرجل الذى اختارنى من بين الخلق أجمعين لم يُنزل من علىّ نظره، ولم يرمش، انتظرت خرخشة الجريدة التى يمسكها، سيطويها ليعلن انصرافه، ولكن الجريدة لا تزال مفتوحة على صفحة الإعلانات المبوّبة، مطلوب فورا.. للشراء بشرم الشيخ.. بمرتب مغرٍ بمؤهلات أو بدون.. سيارة فيات استخدام طبيب.. أول يد..

تسلّل رذاذ مياه مُنعش إلى خياشيمى من خرطوم فى يد عجوز يرش الأرض. ابتعدتُ عن البوّابة والرجل صاحب النظارة والجريدة من خلفى يسير، كدت أسأله عن سبب تعقّبى، ولكنّى تراجعت عندما عقدت مقارنة سريعة بين حجمه وحجمى، سيكون الهلاك مصيرى بالطبع عند أى اشتباك فعلى، شعرت بدوار ممتد، وكأنّ دماغى يحوم فى مدارات بعيدة، أو يقف عند تخوم كوكب المشترى.

لم يحدث فى رحلتى شىء آخر يستحق أن يُذكر إلا عندما التفتُ لملابسى، أنا، صانع الملابس، أنا، عمر الترزى وصاحب محل أزياء الشرق، كان ذلك فى زمن لا أستطيع تذكّره، كانت ملابسى رثّة بشكل فاجأنى، وكأنها مصنوعة من مادة القذارة نفسها، كلّها ساعات قليلة وأذهب للبيت، البيت، نعم، من المؤكّد أن لى بيتا. ولكن الرجل الثابت علىّ بصّته لا زال يجد فىّ ما يغرى تأملاته، كأن سائلا شفافا من الغراء يجذبه ويُجبره على الحملقة تجاهى بهذا الشكل المريب.

شعرتُ بملمس ناعم كالقطيفة عندما تذكّرتُ أنّى نجوت من الحبسة، مرّ المشهد أمامى كفيلم سلقوه فى المونتاج، مناظر مُتقطّعة وسريعة، أفكارها لا تأتينى مجرّدة، ولكن تدعمها صورة حسيّة مرتبطة بالخاطر حاولت إبعاد مفردة النذالة عن تفكيرى، فأنا نجوت وحدى، بدون رفيق، أو قريب، تركتهم فى حبسهم يضربون رؤوسهم فى الجدران وفرحت بإفلاتى من قبضة السجّانين، حتّى أبى، تركتُه، للحق لم تكن نذالة، ولكنّى نفدت بجلدى الذى أشعر به الآن، أتحسسه سليما مُعافى، وأتخيّله كيسا مُعبأ بحشو، أجهزة رخوة وأمعاء تنقبض

وتنبسط وقلب يدق، أنا نفدت بكل هؤلاء، الذين هم أنا، لا أعرف أنا غير هذه الأشياء التى يمكننى لمسها ووصفها.

أعمدة الإضاءة لا تزال مطفأة، لم أر من الناس ملامحهم، فقط كنت أتابع عن بُعد الحيّز الذى يشغلون، أجساد هائمة وتائهة تعبر الشوارع بنصف وعى، يمرون أمامى ولا أستطيع تحديد سرعاتهم، كانت استفساراتى جوّانيّة لا أنطقها، ورأسى يزخر بالأسئلة عمن حولى، من أين جاءوا؟ وإلى أين هم ذاهبون؟ لم أشعر بأنّى متفاعل معهم، كنت كشخص يلبس طرطورا أحمر دسّوه بين أشخاص يلبسون جميعا طراطير سوداء. ربما يجب علىّ الوصول بالفعل لنقطة ما، ثم بعدها يشتعل خيالى تلقائيًا. نظرتُ فى يدى فلم أجد أيّة أمتعة، شعرتُ بأنّى بقعة معتمة تهرب من النور الذى سيبيّن حقيقتها.

هدّنى الإرهاق والتعب، كأنّى كنتُ أتدرّب على ركوب الخيل طوال الليل. كان طوق النجاة الوحيد هو خروجى من البوّابة، وخرجت، وكانت البلوى الحقيقيّة هى بقائى داخل الأسوار، والآن، أصبحتْ البوّابة بعيدة وفى حجم علبة ثقاب، والمبنى الكبير يظهر كـ"ماكيت" لمشروع فى شركة تعمير، كان الناس داخل البوّابة يتلقّون تعليمات صارمة وينفذونها، ولِم المواربة؟ كانوا يتلقّون أوامر لا تعليمات. يعيدون إنتاج الكلمات بحِيل وأغراض مختلفة، فإذا ما قالوا "اتق شر الحليم" فهُم يقصدون أنفسهم، وإذا ما قالوا "وقودها الناس" كانوا يتحدثون عن الآخرين.

الرجل الذى لا أعرفه يسير من خلفى وكأنّه يراقبنى، ظلّ يقترب شيئا فشيئا حتى كاد يحفّ فى ملابسى، ثم قرر كشف هويّته فسألنى:

- هل أنت سعيد إبراهيم؟

- لا.

قلت وأنا متهيّب، لم يكن فى نيّتى الرد، تحت جريدة مهلهلة فقط تهتز فى يده، خرخشتها مُزعجة، هُيئ لى بأنّه فعصها فى يده وحوّلها لكومة غير مستديرة فى حجم رأس، رمى الرجل المجهول فى وجهى الكومة، ومدّ يده الأخرى بعصا سوداء معقوفة المقبض وأعاد على مسامعى سؤاله:

- هل أنت سعيد إبراهيم؟

وما أن تجسّد أمامى بكامل هيئته حتى هبّت الإضاءة قويّة من الأعمدة واشتعلتْ فى وقت واحد، ظهرت الدنيا كُلّها باذخة الأنوار، كشمس انفجرت وتوزّعت فتافيتها الجمريّة على حيّز رؤيتى. واختفتْ البوّابة، اختفت تماما، واقترب الرجل أكثر، الضوء الشديد جعل كل الأشياء كسحاب أبيض مُشرّب بحُمرة برتقاليّة تتشعّب فيها عروق زرقاء. سألنى الرجل مرّة أخرى:

- أنت سعيد إبراهيم. أليس كذلك؟

- لا

- وما اسمك إذن؟

وبارتباك شخص شريف يكذب للمرّة الأولى اقتربتُ منه، رمى الرجل العصا ثم لقفها بخفّة، وقف يلفّ ويدور كراقص يستعد لجولة تحطيب، بدأت الرؤية تتضح قليلا، وعلى مهل بانت معالم الأشياء،

ضحك الرجل الذى بدأتُ تحديد موقعه فى المكان، تشكّلت ملامحه من حركته المستمرّة، كان يلبس زيّا يشبه "يونيفورم" ورديا ملصوقا على جسده، رفع يديه فى الهواء، طوحهما وأخذ يطرقع بإصبعيه الوسطى والإبهام كمن يستدعى "جرسون"، بان من تحت إبطيه شعر أسود مُنفّر، وبين فخذيه أيضا، الآن أراه واضحا، كان الرجل عاريا، عاريا تماما، ابتعدتُ عنه قدر استطاعتى وانطلقتُ أقول بلا وعى كامل:

– اسمى عمر سعيد إبراهيم.

* * *

ثم تشعر بأن جفنيك مضيئين، وأن كل الجدران من حولك لها ملمس ناعم، تخرج من مسامها أنوار خافتة وبليدة، الآن، بين الحلم واليقظة أنت، تتأمّل ما يدور حولك، وكأنك تؤسس لموقف جديد سيتغلّب على كل ما مر من أحداث، تشبه حياتك شبكة رميتها لجمع نفائس الأسماك فحصدتْ مُخلّفات البحر، طال صبرك وأنت قابع خلف البوّابة فى انتظار الفرج.

وترى بعينك التى سيُقرقض فيها الدود، طابور الزائرين الذين دخلوا المستشفى بكامل إرادتهم قبل أن يكتشفوا أنهم محبوسون. ثم أظلمت الساحة الكبيرة ولم تر إلا حيّز الناس يتحركون فى كل اتجاه، بشر جاءوا من كل الأماكن، مشكلتهم الوحيدة أنهم يريدون علاجا، أو يزورون أقارب يحتاجون لمن يَعوُدهم ويعطف عليهم، فوجدوا أنفسهم تحت حُكم الحرّاس الجدد، كان حُكما ظاهره

الرحمة والكلمات الفضفاضة عن الروح والجسد والمبالغات الفلكيّة عن السماوات السبع والأراضين السبعة، وحكايات موصولة عن البؤساء الذين لم يسعفهم الحظ بأن يكونوا مؤمنين، أمّا باطنه فيشهد عليه انشطار أبيك.

أسبوعان قضيتهما فى صحبة الحرّاس وتوقفتَ كثيرا أمام ما يشغلهم، ما يملأ أدمغتهم لا يُمكن رؤيته إلا بعين الخيال والحدس، فكل ما يهتمّون به هو خارج نطاق الكرة الأرضيّة. أحدهم تحدّث معك طوال نصف يوم عن الخلق الأول منذ سيدنا آدم مرورا بسيدنا إبراهيم وسيدنا نوح وسيدنا موسى، إلى آخر طابور قدامى الصالحين الذين كانوا يتميزون بكاريزما معيّنة لا قِبَل بها لبشر عادى مثلك ومثله، اجتهد الرجل فى الحصول ولو على قطعة من أطلال الكاريزما لحسابه، ولو حتّى ستقتصر على نظرات الإعجاب به أثناء الحكى، ولكنّه كان غشيما وبعيدا كل البُعد عن أى نجوميّة، وبعد أن فشل فى إيجاد شيء يبهرك به صمت، ثم استعاد الكلام مرة أخرى، ولكنّه تجاوز الفترة التى تعيشها وقفز قفزة واسعة جدا، حيث وصل مباشرة إلى يوم القيامة، وصنّف الناس على حسب رؤيته ما بين صالحين سينعمون وفاسقين سيشربون المر ويذوقون العذاب والحميم، وبذلك فقد قسّم الحياة الطويلة العريضة لمرحلتين فقط، خلق آدم ويوم القيامة، وتحاول أن تنبهه لأن الفترتين بينهما فترة هامة جدا لا يمكن إسقاطها أبدا، وهى المرحلة التى تعيشونها الآن، الفترة التى أعطته الأرض فيها فُرصة الوجود وموهبة الكلام، ولكن عبثا حاولت، وعبثا رد:

- هذه مرحلة تافهة. حدّثنى عما هو أهم. أهم يا أخى.

وكنتَ تصرخ بالليل وأنت تقول:

أنا هنا. أعيش وأتنفس وأحلم. أنا عمر سعيد إبراهيم.

وتترك الخيزرانات بصماتها على جسدك، وليلتها لم تنم، ليس بسبب الأرق أو الصداع، ولكن بسبب الضرب تورّم كل جسدك، وقبل أن تنام جاء شخص منهم لا تعرفه وداوى جروحك برقّة متناهية واعتذر عما قاله زميله.

ثم ترى كيف رسموا الخطّة لإخراج الناس من هنا، خطة تبدو من إنتاج قريحة بدائيّة، ففى اليوم التالى نودى عليك فى كشف يمسكه الرجل الذى كان يعذّبك بالأمس، ووجدت نفسك ضمن فريق كبير مِمن هم فى نفس حالتك أو يقاربون، رصّوكم فى طابور طويل خلف البوّابة، رأيت المنظر بوضوح للمرّة الأولى منذ مجيئك إلى هُنا، وكان يقف بجوارك زملاء فى الحبسة أكل منهم الخيزران الرفيع وشربتْ منهم الكرابيج المنقوعة فى الزيت، كانوا يمشون بعجز ويتمايلون كبيوت صغيرة يهزّها زلزال. وبعد أن تم عليكم أمام البوّابة وقف رجل بدين جدا تقبّ إليته من الخلف بوضوح، ويعلو كِرشه من الأمام، لا تستقيم له جُملة بسبب النهجان، ولا يستقيم له عود من جراء الرعشة المتواصلة وعدم التحكّم فى أعصابه، كان مجرّد سحب الشهيق يجعله شبيها بالهوّاية الريش التى كانت ترقص على رؤوس السلاطين القدامى، ولكن من مهابته كان

يبدو الرجل حائزا فى المستشفى على مكانة ما، اقترب من الطابور المُكوّن من عشرة أشخاص وقال:

هكذا حاولنا إصلاحكم. وهكذا فشلتم فى رؤية ما نراه، حسّكم وعينكم أن تتكلموا عن فَشلنا نحن، ولكن تذكروا جيدا بأننا حاولنا كثيرا. وأننا فى يوم ما سنقف جميعا أمام أعمالنا.

بدأ صوت الرجل يأخذ منحى تدريجيا للسخافة. الشمس متعامدة عليكم، تفككت ارتباطات الكلام فى دماغك من سخونة الجو، وشعرتَ بحَوَلْ مفاجئ، وقبل محاولة استيعاب التعليمات أضاف الرجل:

لقد قررتْ إدارة المستشفى أن تترككم تخرجون، ولكن بشرط.

وجمتم جميعا وكبست على نفوسكم طبقة ثقيلة، توقفت صدوركم عن التنفس وأرهفتم السمع فأكمل البدين:

- سنتكفّل بتمزيق كل ما عليكم من ملابس. وستخرجون من هنا عرايا كما ولدتكم أمهاتكم.

(2)

بعد أن رأيتُ ما لا يجب أن يُرى فى الرجل توقفتُ قليلا، لَعلّى أحلم أو التبس علىّ الأمر، أو اختلطتْ الحقيقة بصور مُتخيّلة، تأملتُ الرجل الذى لم يبدُ عليه التعجّب. نظرتُ لملابسى وتفحصتها، شعرت بأنّى مخلوق رخو يتقوقع داخل صَدفته، أو أننى لا علاقة لى بهذا المكان، ربما استنبتونى فى مكان آخر وجئت إلى هنا كديكور أو ورد زينة. أقف حائرا وأنا أحاول اقتناص اللحظة. احترتُ وشعرتُ بتفاهة أسباب وجودى، إحساس يصعب وصفه. جَمّعتُ شجاعتى ووقفت أتحسس ياقة قميصى، وبرغم قذارتها فحشوّها متماسك، والجاكيت "الفايبر" من فوقه يفى بالغرض، فالملابس التى تمنع البرد تمنع الحر أيضا، هكذا كانت تقول أمى.

كان بنطلونى متّسخا ومجرّحا لدرجة يصعُب معها معرفة لونه الأصلى. وكانت عباراتى الداخليّة التى هى قيد التشكّل مسكونة بالهواجس، فالرجل لم تتحرّك فيه شعرة، لدرجة جعلتنى مُحرجا له، كيف كان يقرأ الجريدة وهو عارٍ بهذا المنظر؟ لم ينتظر حتى تختمر الأسئلة التى أعددتها له داخل دماغى، ولكنّه هجم علىّ وباغتنى بسؤال:

- متأكّد من أنك لست سعيد إبراهيم؟

- نعم. أنا لستُ هو ولكن لماذا تسأل؟

كانت إحدى قدميه مُعلّقة على الرصيف ومدسوسة فى فردة حذاء واحدة، أنزلها واستوى عوده الضخم فى وقفة مستقيمة ثم هجم علىّ كمن سيُحرّر رهائن وقال:

- سعيد هو الأمل الذى انتظرناه كثيرا خارج البوّابة.

لم يكن هناك سبب وجيه واحد لأن أصدّقه، خاصة وأنه كان يقول كلاما محترما ورصينا بينما هيئته نابية، اتكأ الرجل العجيب بمرفقه على كتفى وكأننا صرنا صديقين، ثم قال بنفس نبرة الصوت الفخمة:

- سعيد إبراهيم تحمّل الكثير من أجل الناس العاديّة أمثالى وأمثالك. فهل يكون جزاؤه بعد ذلك الاّ أسأل عنه؟

عندما كرر الرجل اسم أبى ذكّرنى بأنّى متناهى الصِغر، فهذا الغريب يسأل عنه، بينما تركته أنا خلف الأسوار، ولم أفكّر إلاّ فى نفسى، ربما كان هذا الرجل مبعوثا لإيقاظ شموخى الذى انطمس فى أزمنة غابرة؟ ولكن لماذا كل هذا التركيز معه، يمكننى الانصراف عنه وعن منظره المُخزى هذا، ويمكننى أيضا الابتعاد عن هذه المنطقة والبحث عن أجواء جديدة أرتب فيها لترك هذا العالم العجيب للأبد، فالوجوه التى أراها ليست جديدة، حتى ولو أقابلها للمرّة الأولى، تبدو مُكرّرة ومرئيّة لآلاف المرّات، كالطعام الممضوغ سلفا. لكنّى برغم ذلك لم أستطع الهروب، أصبحت متورطا بشكل ما.

كلما لحتُ الرجل العارى اختلط الجد بالهزل فى رأسى، لا أدرى هل أضحك على منظره أم أتوقّف أمام الأسباب التى أوصلته لذلك؟ أحسست بأن محاوراتى الداخليّة أكبر من أهميّة المشهد بالنسبة للرجل، فقد كان أليفا إلى حد كبير، يهرش بين فخذيه فتترجرج بضاعته كعجين خمران، ويهتز ثدياه الكبيران المرقطان بالنمش، لم يعد باستطاعتى تخمين ما سيحدث بعد دقيقة واحدة؟

كانت الصورة بالكامل مُضبّبة كدخان تحت المصابيح، أو كالدخول على عتبات حلم. لم يعطنى الرجل العارى فرصة لكى أختلى بنفسى، رفع عصاه للسماء، تيّبستْ يده لحوالى دقيقة كاملة على هذا الوضع ثم قال:

– السماء أعطتنا سعيد. سيدنا سعيد. ونحن نرفض العطيّة. تخيّل؟

لم أرد. توقّفتُ عن الكلام محاولا تدبير كلمات تجعل هذا الكائن ينصرف عنّى، لكنّه استغلّ صمتى وانفتح:

– البشر ظالمون. كلّهم ظالمون. حتى أنت وأنا. ظالمون. تخيّل؟

قال الكلمتين الأخيرتين وكأنّه يتابع أطيافا وهميّة مرسومة أمامه على الهواء، ثم كشّر تكشيرة شخص جَرَدَ دكّانه فاكتشف خسائر فادحة. لا إراديّا كنت أقارن فى كل دقيقة بين ملابسى وعُريه، أقارن بين جاكيتتى "الفايبر" ولحمه المكشوف للذباب، أدار الرجل لى ظهره وهمّ بالانصراف.

كان يتحدّث عن شخصا آخر غير أبى الذى رأيت، وكنت أفوّت له كلاما كثيرا، وكأن ما أنا فيه هو نتيجة طبيعيّة لثورة الزمن وانفلات العقارب من تروسها الدوّارة، فقد كان بعُريه هذا يبدو كما لو أنّه سقط من ثقوب عصور غابرة.

اتكأ الرجل بمرفقه على كتفى مرّة أخرى وكأننا صرنا أصدقاء من جديد، ثم رفع زوايا فمه كأنّه يستعد للابتسام، ولكنّه تراجع ولم يبتسم، اخذتْ ملامحه شكلا صارما وهو ينظر إلى نظرة شفقة ويقول:

- لماذا تقف أمامى هكذا. عاريا؟

* * *

ويقترب منكم الرجل السمين وهو يمسك بمشرط جراحى، تظن بأنه سيشق جلودكم، تبدّدتْ المخاوف عندما مدّ يده لأول شخص فى الطابور وشق قميصه من قبّته، بعد الياقة بقليل سرح المشرط فجعل القميص كضلفتين ثم فتحهما على المِصراعين، فقال الرجل المذهول وهو يشير إلى زراير قميصه:

يمكن فتح القميص فى أقل من دقيقة، لا داعى لتعبك.

وعندما بدأ تخليص الزراير من العراوى أمسك الرجل صاحب المشرط بيده وقال:

ليس المقصود هو خلع الملابس. ولكن تدميرها قبل حرقها. لكى تمشوا فى الأرض بسوءاتكم ولا تجدوا من يستر عوراتكم.

صمت الرجل وكلّ منكم تخيّل نفسه واقفا ينتظر استكمال توقيع العقوبة، كانت الوقفة مُهينة، ولكن الرجل طأطأ رأسه ومط شفتيه وأغمض عينيه، لم يفق إلا بعد أن سأله صاحب المشرط:

ما اسمك؟

فريد.

بعد قليل ستكون فريدا بحق. انتظر قليلا.

عندما انتهى صاحب المشرط من شق قميص الرجل فعل نفس الشيء مع فانلته المخرّمة البالية، سحبة واحدة تَبِعَها صوت تمزيق كأزيز سرب ذباب، انتهى صاحب المشرط من الجزء الأعلى ورماه كبداية لكومة ستتجمع فيما بعد، وجاء دور الجزء الأسفل، خلع عن البنطلون الحزام أولا، ثم لفّ على كفّه جزءا كبيرا منه، وعندما تمسك الرجل ببنطلونه أوسعه ضربا بالحزام الذى كان يزيّن خِصره منذ لحظات، همدتْ عزيمة صاحب المشرط وتصلّب الرجل نصف العارى، أصبحتْ إرادته خارج نطاق الخدمة، تخلّت عنه وتحوّل بعد انصياعه لشيء لا روح فيه. ضرب الرجل الغاضب مِبضعه فى كمر البنطلون، ثم شد يده بخفّة فتهلهل الكمر والجيب حتى قدمى الرجل، سَلَتَ البنطلون بسهولة وكأنه يقشر إصبع موز، لم يتبق للرجل إلا لباسه الدمّور. فى البداية، قاوم الرجل، سحب قطعة القماش الصفراء المتسخة التى تستره، ولكن أول ما رأى المشرط يقترب من عينه عاد صاغرا لسيرته الأولى، وضرب الرجل الموكل إليّه تعريتكم اللباس

فسقط كقشرة ترمس تخلّت عن حبّتها، ووقف الرجل عاريا، ولكن ليس كما ولدته أمّه، بل أبأس حالا وأرث هيئة.

كوّم صاحب المشرط ملابس فريد، أخذ يساوى بينها ببوز حذائه، تجرّد زميلك من أى تعريف، اسمه وسنّه ومكانته، وكأنّ الملابس احتوت على كل الصفات، أصبح اسمها فريدا، وتحوّل فريد للاشىء.

ما فعله صاحب المشرط مع فريد كرره معكم جميعا. وكان حظّك لا بأس به فى مسألة التعرية، فقد كنتَ الأخير، قُدِر لك أن ترى كل من فى الطابور وهم عرايا، رأيتهم لمدّة طويلة خاسئى النظرات حاسرى الرؤية مبهوتين، ورأوك بعريك مدّة قليلة جدا قبل أن ينتهى الرجل من تقشير ملابسك بالكامل.

"لِم كل هذا النضال من أجل حياة بائسة لا تستحق المقاومة؟"

تسأل نفسك، وقبل الاهتداء لإجابة كان طابور العرايا ينتظم ويستعد للخروج.

لّما تعريتم جميعا خفّ إحساسك بأن هناك شيئا ما مختلفا، أصبحت لكم حُرّية الحيوانات البرّية، كان إحساسا جميلا، منعشا، دفء الشمس مع تخلخل نسمة الهواء داخل كُل فتحاتك شكّل شعورا لذيذا، كانت السيدات الملثمات يعانين الحر والبدانة خلف البوّابة، وكان البدين فيكم يدخل له الهواء من كل الفتحات

والمسام، لوهلة أحسست بأن الرجل صاحب المشرط يضمر لكم شيئا من الحسد، فقد كان يلبس جلبابا ثقيلا ومن تحته تظهر قبّة جلباب آخر، وفخذاه يحبسهما كالسون بُنّى، والحر الشديد يجعل ملامحه تنز العرق، وتنشع فوق ظهره خطوطا غامقة من لون الجلباب، لوهلة أيضا، تخيّلت بأنه يتمنى لو كان مثلكم، حُرا.

قبل أن يفتحوا لكم البوّابات اقتادكم صاحب المشرط فى طابور جديد، وقفتم شبه ملتصقين، كلّ منكم يضع كفّيه بين فخذيه كحركة وقائيّة، لكن سرعان ما تبددت الهواجس ورفعتم أيديكم عن أحواضكم، عُدتم تفعلون بأذرعكم ما كنتم من قبل تفعلون. من يهرش ومن يتحسس شعره ومن يأكل شيئا فى يده، وأنت وضعت يديك فى وسطك وحاولتُ تجريب الوضع الجديد. أمركم الرجل بعدم أخذ ملابس من أحد، حتى لو عُرض عليكم ذلك. هل تسمعوننى؟ حتّى لو عُرِض عليكم ذلك. قال على عجل ثم انصرف.

(3)

تأملتُ ملابسي جيدا، إنها برغم رثاثتها موجودة، لم تزل ملتصقة بجسدى فوق أوساخ المستشفى، أهندم القميص وأرفع البنطلون وأضبط وجهة الحزام، ماذا يقصد الرجل إذن بأنى عارٍ؟ كان هو العارى ولا يشعر بذلك، لّما رآنى هل رأى نفسه فى اللحظة ذاتها؟ لم يكن لى وسيط آخر أرى به إلا عيناى المجهدتان من طول النزاع داخل الأسوار. أحسست بأنى مزنوق بين قضيبين وقد أغلق على عامل التحويلة سنجة المزلقان، هل افتقر خيالى إلى التركيز الكامل فهيأ لى أوهاما لم تكن فى الأصل موجودة؟ بالفعل، لقد انجذبت نحو الرجل العارى وكأنه من أهلى القُدامى، نوع من الحنين اجتاحنى وهو يحدثنى بثقة مزعومة.

كل ذلك يحدث غالبا بسبب الإرهاق. فأنا لا أزال واقفا أمام البوّابة، هل توصّلوا عن طريق حزمة من الحيَل البارعة فى هز ترتيب الزمن؟ هل يمكننى أن أستوعب عُمرا فى ساعة واحدة على الأكثر؟ لماذا أستسلم للوقوف أمام شخص عار لا يدرى لماذا وصل لهذه الحال؟ كنت كمن يرى العالم عبر ألواح زجاجيّة تُكسّر الضوء وتُفتّت الأصوات.

لو وقع بين يدى الآن مصباح سحرى سأطلب منه مطلبا واحدا لا غير، أن أتكلّم ويسمعنى أحد، ينصت إلى شخص واحد يهمّه كلامى، كانت تسكننى تُخمة تعبيريّة، فائض من الأوصاف والتشبيهات يكفى ألف كتاب، وكبت فى التعبير يضعنى على حدود سديم جهنّمى من العدم المطلق، كنت أود لو يصل صوتى خارج حلقى، ثم ينتشر خارج مسكنى، وبعد ذلك يستحوذ على مسامع من هم وراء المدينة، ثم المحافظة، ثم خارج حدود الوطن، ثم الوطن العربى والكرة الأرضيّة، ثم يتفوّق صوتى على الجاذبيّة والغلاف الجوّى، يتجول ليصاحب الكواكب السيّارة ويتفتت بين المجموعات الشمسيّة اللانهائيّة، وينتشر بعد أن يخرج للبراح الكبير، ويطوف بين حِزم المجرات، ثم يصل ساكنا مستقرا بين مسام الغازات وركام الفتافيت الكونيّة التى لم تحصل حتى الآن على مُسمّى بشرى. هذا ما يستحقّه صوتى، ما يستحقه تماما.

كنت كمن يصارع كابوسا ويجتهد فى الاستيقاظ، أفتح عينى على المصراعين، أحدّق بقوة فلا أرى شيئا جديدا عما رأيته من قبل، فأهرول هربا من الأحلام المزعجة لأقع فى شَرَك حياة باهتة لا معنى لها، يغلقها باب واحد موصد باستمرار، وكلما حاولتُ فتحه لِيُدخِل سلخة نور وخذتّنى مساميره الكثيرة، مسامير تُكَوّن الدقائق والساعات والسنين، وعندما أترك الباب تنغلق السلخة بنورها وأعود كما كنت أبحث عن مَخرج.

تدور الأفكار فى خيالى كمفردات لغة غريبة، أجهل فيها التراكيب والأفعال، أشعر بأن شخصا غبيا يحدثنى سرا عن أشياء غير مترابطة،

فيتفوه بين الحين والآخر بشذرات من لغة ربما أعرفها، أو تُهيئ لى ربكتى ذلك، وكانت المعضلة هى غربلة كل الكلام وتركيبه من جديد. كنتُ خفيفا، كحلم يقاوم تفسيرات الواقع، فالوضوح، حتّى فى الضوء مزعج، تحتفى الأحلام بالظلال ولا تنشغل بأصولها، تكتسب قيمتها من غياب النشاط العقلى، فهذا الأخير يكون مخدّرا، تحلّ عنّى الجاذبيّة وأصبح كالريشة، لا يتحمّل عقلى فى الأحلام عبء الأفكار، ولكنه يسعى دوما للتخلّص منها عبر الرموز، فأصحو خفيفا وفارغا قبل أن أتلوّث بأفكار جديدة، أتمطّع، أشعر بأن فى حوذتى أفكارا جديدة لا يستوعبها عالمى، تطل دائما على فناء واسع، أوسع قليلا من مجرّة.

عندما فاجأنى الرجل صاحب الجريدة بعرىّ توقّفتُ عن التفكير للحظات، تخوّفتُ من أن يكون منظرى كما تنقله إشارات مخه، مثيرا بأى شكل، أو على الأقل مقززا، تمنّيت الدخول فى كهف على مقاسي بالضبط، ومن يرد أن يرانى يرانى وأنا مُغلّف بالكهف، أخشى أن أبدو عاريا وحقيرا، ففى الوقت الذى كنت أشفق فيه على الرجل صاحب الجريدة من عُريه؛ كان هو الآخر يشفق علىّ لنفس السبب، وكأننا فولة وقُسمتْ لنصفين، ولكن وجهى كان مناقضا لوجهه، فأنا عابس الملامح وهو مبتسم أغلب الأوقات، أنا أفكّر فى أمور عويصة وهو لا يشغله إلا سعيد، أبى.

بعد تخيلى لعرىّ شعرت بجسدى يخضع بشكل ناعم لتغيرات فوريّة، أحسست بأنّى متناهى الصغر، وأنّى أموج فى سوائل وغازات

وأركب على قذيفة مدفع، وكأن معادلات جديدة تتخلّق لتسمح بإمكانيّة تشويه الزمن، كانت بينى وبين نفسى مسافة بعيدة، تفصلنى فراغات غير محددة، وكأنّى بالفعل أصبحت شطرين غير متساويين، تحتجب عنّى معرفتى الحقيقيّة ببعضى، وتقف عند باب الخواطر، أشباه أفكار وبقايا أصوات تنادينى بتلقائيّة ناعمة:

- تعال.. تعال.. اقترب ولا تخف.

كانت صورة الرجل تتكسّر قبل أن تأتينى، ككتلة معتمة تقطع مسار الضوء، ولكنه برغم غرابته فقد كان يُشكّل ومضة فى قلب عتمة، أو مدينة شُيدت أمامى فجأة وأنا أسير فى صحراء قاحلة، صورته وهو عارٍ ترسّبتْ لى قعر مخى، وفى نفس الوقت كنت أتخيّل نفسى أنا العارى، هل كل ذلك بسبب تأكيده بأنه يرانى عاريا؟ ربما كان العيب فى نظره، وبعد قليل سيطيب له الاعتذار وسيقول لى بصوت خجول "العتب على النظر يا أخينا"، ولكن ما أكّد استحالة ذلك أنه كان مبتسما ابتسام المنتصرين، وجنتاه ترفعان إطار النظارة بشكل دائم، لم تفقد ابتسامته مسارها إلا عندما تأملته بقوّة.

حفّت فىّ عربات أجرة كانت تسير مصفوفة، لم أرها إلا الآن فقط، وكأن شيئا من التعمية البصريّة اجتاحنى لمدة طويلة من الزمن، حتّى الزمن لم يعد بإمكانى استيعابه، وكأنّى أجلس لى كابينة قيادة تسير بى، وليس لى عليها أى سلطان.

ماذا حدث منذ قليل؟ هل يمكننى استعادة المشهد من أوله؟ شقّنى سيف ضوئى مفاجئ فرأيت الرجل عاريا، ورآنى عاريا. من منّا

العارى، ومن منّا ما زال يرتدى ملابسه؟ إحساس مُعقّد يلزمه خيال، لُغز يشحذ كل طاقته ليتجلى أمامى حقيقة تقف على قدمين، هل تولد الحقائق أم يتم اختراعها؟ كل ما ندّعى بأنه اليوم حقائق كان بالأمس فرضا يتلعثم صاحبه فى طرحه، هل يمكن العودة للوراء عبر الزمان؟ لقد رأيتُ هذا الرجل العارى وهو يدّعى عرىّ فى مكان ما، أو زمان ما، ليست الأماكن والأزمنة التى عرفتها من قبل، لكنّى رأيته فى مكان يشبه الحلم، وزمان يشبه ألواح زجاج مُتكسّرة يغلى من تحتها ماء.

جاءنى بنفس وقاره الذى لا يتناسب مع لحمه المكشوف، ربما رأيته عبر ثقب فى قمر أسود، وربما لم أره حتى الآن، وما يحدث أمامى لا يخرج عن كونه نوعا من الحدس أو التمنّى، وربما الاستباق بقفزات غير مرئيّة.

تحوّل السيف الضوئى إلى آلاف من سيوف ضوئيّة سريعة تتراشق فى الأرض التى أقف عليها أنا والرجل صاحب الجريدة. اشتعل المكان بالأضواء الصادمة، كان يمكننى رؤية ذرات الغبار فوق كفّى من شدّة الأنوار، وكان يمكننى كذلك أن أتحوّل لنجم بارق بسهولة. ولكنّى بشكل مفاجئ رأيتهم من حولى يقفزون، ينطّون فى صخب كقرود مُدرّبة، ابتعدت بسرعة، عدت فى اتجاه البوّابة، تمسكّت بها، التف حولى جموع يصيحون فى نفس واحد:

– لماذا تقف هكذا عريانا؟ لو أردتَ ملابسنا سنخلعها من أجلك. ولكن لا تقف هكذا يا مسكين. فرؤيتك بهذا المنظر تؤذى مشاعرنا.

لم يزعجنى هجومهم، ولم يزعجنى وصفهم بأنّى عريان، ولكن ما أزعجنى حقًا هو منظرهم، فقد كانوا كلّهم عرايا، لا تستر أجسادهم فتلة.

* * *

عندما طردوكم بدون ملابس خارج البوّابة كنتم مرتبكين إلى حد ما، انعطفتم فانعطف معكم المستشفى، ثم اختفى المبنى خلف ظهوركم، كانت بقايا النوم تتقطّر من أعينكم، وحُمرة بشراتكم دليلا على السهر المتواصل والقلق المتقطّع. وقفتم تحملون فى الأول طاقة كبيرة سالبة، سرعان ما تحوّلتْ لحركة ونشاط ربما ليخفى ربكتكم، كنتَ كمن تحالف على تفتيت الإحساس بالوقت، أصبحتَ خارج البوّابة فى زمن لا يتعدى رمشة، وأحسست بأن السجلّات التى تُخفى حقيقتك ربما حُرقت قبل قرن من الزمان، عندما كان لك جدّة مُتعبة ومعها ابنتها التى هى أمّك، ماتت إحداهما وتبقت الثانية، لا يمكنك تحديد مَن منهما ذهبت وتوقف بالنسبة لها الزمن، ومن منهما ما زالت تدور فى أفلاك الساعات وتروس الوقت؟ ظلّت واحدة منهما تتواصل مع الأخرى التى توقف نشاطها واختفت هيئتها، لم تختفِ إلا عن الأنظار، ولكنّها كانت متعلّقة فى جزء نشط من خيالك، تأتى راكبة على حصيرة ممتدّة مكونة من ثمانى ساعات هى زمن النوم، تنشط الذاكرة بقوّة عندما يتحرر الجسد من طاقته تجاه ما يرى ويحس، وتصبح هناك عيون أخرى ووسائط ترى كل شىء هلامى الهيئة والملمس، كانت كل الكائنات من أجسام وأشجار وألوان يمكن حملها من مكانها بسهولة، ويمكن أيضا بلفتة على الوسادة التَحَرُر من كل شىء ونقله

بشكل فورى لمكان آخر بمنتهى اليسر، تدخل أماكن كثيرة، تقف على أرض غير ثابتة، تقول ما فيه النصيب ثم تتوه فى غيامات دخان أبيض ينتهى بذيل برتقالى.

سرتم سربا من العرايا فى الاتجاه العكسى للبوّابة، كان لكل منكم اهتماماته الفكريّة التى تشغله وتملأ فراغ الطريق.

أول ما توارد أمامك كانت صورة جدّتك، تذكّرت الآن فقط أنّها هى التى تبقّت على قيد الحياة بعد موت أمّك، ولكن أين جدتك الآن، هل لا تزال حيّة؟ مع توغلك فى المسير تذكرت التفاصيل، رأيت كل ما كان وسألتَ أسئلة على قدر كبير من الإدراك، كيف أصبحتْ ترى الأذرع المتطوّحة أمامها، هل لا تزال تشتهى التهامها؟ تركتماها فى مستشفى المجانين التى كانت أمّك تسمّيها مصحّة، تتذكّر جيدا هذا اليوم الكئيب، ولكن هل جدتك لا تزال حيّة؟ هذا هو المهم، بالطبع لن تذهب للبيت لتكلّم نفسك، هه، هل ستُحدّث نفسك؟ بالطبع أنت لا تحتاج لمستشفى، ولكنّك تحتاج لراحة، راحة طويلة، تعود بعدها لمرحلة ما قبل البوّابة، لا تدرى هل توقّف الزمن بالداخل، أم مر عليك أسرع مما يجب؟ المهم، بأنك الآن بالخارج، ماذا يجب أن تفعل لتشعر أنّك حُر؟

بالليل كانت أجسادكم تلمع لمعة مثيرة، كأنها مُشبّعة بزيت مضيء، تحررت تماما من ضم يديك بين فخذيك، وبالتدريج صارت وظيفة الذراعين هى التطوّح يمينا ويسارا كأى رجل عادى، حاولت حدس السبب الذى لأجله جعلوك عريانا، ولم تصل لأى نتيجة، فتركت التفكير فى الموضوع برمّته.

بعد توقّفكم أمام الكوبرى غاب المستشفى عن الأنظار، وبدأ كل منكم يسأل الآخر سؤالا تقليديا:

أين طريقك؟

بل أين طريقك أنت؟

وبدأ زملاؤك المؤقتون بالإشارة إلى جميع الاتجاهات فى وقت واحد، وكان طريقك أنت معروف إلى حد ما، فـ"الميكروباص" الذى جاء بك سيحملك ويذهب بك فى الاتجاه العكسى. تركتهم أو تركوك وأصبح عليك أن تجتهد وحدك فى التذكّر. وقفت على المحطّة وبجوارك سيدات ورجال وعيال، لم يلتفت إليك أحد برغم غرابة هيئتك، اقتربت من رجل يقف وهو يحاول إشعال عود ثقاب:

هل يتأخر "الميكروباص فى مثل هذا التوقيت؟

سألته، فأجاب الرجل والسيجارة تهتز بين شفتيه:

زمانه فى الطريق.

لم تكن إجابة على أية حال، ولكنك اختبرت رد فعله عند رؤيتك، لم يكن هناك ما يثيره أو يستدعى عجبا فى نظراته أو نبرة صوته، اقتربتْ منك سيّدة بطنها أمامها شبران، حك بالونها المنتفخ فى مؤخرتك، فنظرت إليها وأنت تتابع عبورها، رمتْ عليك نظرة سريعة وقالت:

- لا تؤاخذنى يا أخى.

ثم بعد ذلك انصرفتْ كأى امرأة محترمة تعتذر عن موقف عادى. وكنت تود الخروج من المواقف المُحرجة وأنت مجبور الخاطر. بعد الأرق والإجهاد المتواصل تمنّيتَ الحصول على آية مسرّات، فقد كان تركيزك مُشتتا وتفكيرك متوقّفا عن النشاط، نعبت من المراوغات وفَقَدَتْ شِعاب أعصابك القدرة على الشم.

جاء "الميكروباص" وأمامك بالضبط توقّف، فركبت، وتحرّك، وفى أقل من طرقعة إصبع وصلت، فنزلت، وتذكرت بأنّك لم تدفع الأجرة، ولكن شَغَلَك عن دفع الأجرة شوشة ذرة حمراء تبص من شباك بيتكم القديم، طلّت الملامح التى تحفظ تفاصيلها جيدا، جدّتك، أغلقتْ ضلفتى الشباك بشراسة، اختفت الحصيرة الشيش وظهر مكانها الرأس بكامل هيئته وذكرياته، بدأت سنتها الوحيدة تدق لثتها بقوّة، وبدأ فمها استلام وظيفته بعد عطب طويل:

- أنت جئت يا زفت الطين؟

(4)

وهكذا أصبحتُ كبطّة سوداء تعوم فى بِركة كل ما فيها بط أبيض، ولكنّهم يرون العكس ويريدون إقناعى بما لديهم من معلومات، الناس الذين تجمهروا من حولى كان لوجوههم لون باذنجانى مصقول، ولكنّه برغم ذلك غير مُخيف، أعينهم نجلاء وكأنّها مختصّة بكشف أسرار مهمّة، توحى هيآتهم بأنهم قوم يصلحون لنثر الإجابات أكثر من طرح الأسئلة.

كنت أشم رائحة اللحم البشرى بمجرد رؤيتهم، رائحة بصل يُقلى على نار هادئة، تتخللها رائحة دخان وزيت طعام محروق، وفرو ماعز فى أول درجات الشياط، يختلط كل ذلك بغبار قرفة خفيف، تنتصب أعصاب الشم فى مخّى فأتبيّن، إيحاءات بصريّة تنقل الرائحة إلى لون، فأتخيّل ما تبقّى حتى يمكننى ترميم الصورة وتأكيد انطباعها المرئى، فقدتْ الكلمات جرْسها وأصبحت الصورة هى المسيطرة على إحساسى، تُهتُ بين شِعاب الشم وكرنفالات الألوان، بين الرؤوس الصلعاء والمحتفظة بشعرها، وبين الأجساد البدينة والأخرى الفاقدة لشحمها، وبين البشرات السمراء والأخرى الورديّة، لم أعد أدرى ماذا تعنى كلمة مثل ملوخيّة، أو ذراع، أو دفاع. مدينة. مدفع. قُبلة.

قنبلة.. سيطر علىّ مشهدى الضيّق الذى أتلعثم فى اجتيازه، تراكم التفاصيل يُشكّل الشخصيّات تدريجيًا، شخصيات يُخال لى بأنّى كنت أعرفها فى زمن ما ولّى وانقرض، أو لم يأتِ دورها فى زمن لم تتحدّد وظائفه بعد، أقف وأنا أرتدى كل ملابسى، حتى الجاكيت "الفايبر" الثقيل فى عز الحر، وأنتعلُ حذاء أسود برباط، وساعة قديمة ورثتها عن أحد أجدادى، يُقال بأنّه كان تاجرا كبيرا وله صيت.

لّما هجموا علىّ وأصبحت بينهم كحبّة شاى أوقعها القدر فى برطمان سُكّر، استسلمت لما سيأتى برضا، اقتربوا وهم يسألون بشغف بعض الأسئلة الطفوليّة:

- بكم هذه الساعة الجميلة التى تلبسها فى يدك؟

-

- لماذا لا ترتدى غيرها؟

-

- من أين اشتريتها؟

-

رفعتُ يدى بمقدار بوصة، وأخذتُ أتأمّل معصمى وأهز فيه الأُستيك المصنوع على هيئة جلد ثعبان، كان معدن الساعة يحك فى إسورة الجاكت "الفايبر"، وبرغم ذلك لم يروا إلا الساعة فقط، اختلفت الرؤية بينما المشهد يدور فى مكان واحد وزمان واحد، كانوا يثرثرون بشذرات حوار لا يأتينى مكتملا، مفاده الذى أمكننى

استيعابه، أنّي لى أعينهم أقف كما خلقنى الله، خال من الألوان، والستر، كحبّة بُندق نطت من قشرها، وتجاوزها، من كثرة الحديث عن عُرىّ بدأتُ أشعرُ بالفعل أنّى عريان، تنقبض تجاويفى بين الفخذين وعند الردفين خوفا من كشف عين مُتطفّلة لأسرار خِلقتى، وكان وريد رقيق من الخجل يتحكّم فى كل ما أشعر به من أحاسيس سلبيّة، فلماذا الخوف من الفضح وكُلّهم أمامى مفضوحون؟ كان تعريفى الأوّلى لهم أنهم قوم يشتركون معى فى كل شيء عدا الرؤية، فجميعنا متساوون، لنا ذراعان وقدمان وأجهزة هضميّة ودوريّة ورئتان للتنفّس، ولنا كذلك رأس تطل منه عينان، ولسان وشفتان، تختلف فقط الكماليّات، رأس بشعر أو بدون، لحية مُرسلة أو مقصوصة، ملامح مُكشّرة أو باسمة. إذ إن كل ما يُفرّقنا هو ما لنا دائما فيه يد، عند الحديث عن المستلزمات يبدأ الاختلاف، فهذا اسم عادى وسلبى لا يستدعى للذهن أى تصاوير أو خيال، أمّا ذاك فاسمه مُركّب يسعد صاحبه بالكنية واللقب. كل هؤلاء المتحلقين من حولى يقومون بتلقيح أشجار الكلام، لا لتناسب المواقف بقدر ما تناسب حاجة تحتشد داخل نفوسهم.

كنت أشعر بشيء ما يربطنى بملابسى، هُيئ لى بأنّى أنا صانعها، أنا من اشتريتُ القماش وقَصَصتهُ، حَرَدتُ دوران المقعدة وحِجْر البتلّة، وأنا أيضا من علّق اللافتة المكتوب عليها أزياء الشرق، وأنا كذلك من أكّدَ على الخطاط بأن يُضيف عنوانا فرعيا بين قوسين (للأناقة أسلوب) ولكن فى أى زمن سُطِرَتْ هذه الأحداث؟ لا يمكننى الآن

التذكّر بشكل كامل، كل ما أعيه أنّ هذه الحياة تمر أمامى كخربشات خفيفة خُطَتْ فى دماغى، أو كنخالة ترسّبتْ فى قعر ذاكرتى، ولكنّها فى الوقت ذاته ترمح إلى المجهول، أراها تبتعد صاعدة أو هابطة بسرعة، كأنّى عشتها خلف ستار من مشمّع سميك ومغبّش.

خفتتْ علاقتى بالناس والأشياء من حولى، لم أعد أسمع حشرجة التحيّة المعتادة، ولا وقع خطواتهم الثقيلة، اختفى وعيى الكامل وحل محله إحساس بتجمّد المشهد، رأيت فى الجو دخانا، كما لو كنتُ فى حرب قنابل غاز بالكاد وضعت أوزارها، والأشياء تتكرر كشريط فيلم سينمائى رأيته عشرات المرّات، انفكَ الوثاق ولم تعد لى سيطرة على ما يحدث، لم تعد لى أى حيازة فى المكان، ولو حتى شبر واحد، أشعر بأن مادتى أصبحت لا بشريّة بالمرّة، كأنّى صرت شيئا أموج مع الأشياء، أو صورة فوتوغرافيّة سائلة تتأثر بالزمن، وتتحوّل للوحة من زيت أو تمثال من خشب، فقدتُ مع الوقت الإحساس بالساعة وتعاقب الليل والنهار.

كل ذلك لم يكن يقلقنى، وجودى بين الكتّل البشريّة العارية، تدثرى بملابس ثقيلة لا يرونها جميعا، كانوا يرون فقط ساعتى أم عقارب، مقبرة الآمال العظيمة والخيبات المتوالية. كان سبب الطمأنينة هو أنّى لا زلت أشعر بمن حولى، أحاول توصيف الأحداث بما أمتلك من بقايا وعى، غِبتُ، ولم يعد بإمكانى الحضور مرّة أخرى.

كلما حاولتُ أن أصف شيئا يصعب وصفه، أشعر بتمزيق فى صدرى، أجتهد فى دفن الكلمات قدر استطاعتى، ولكنّها تقب وتلبس

أرواحا من الأفعال رغما عنّى، ولا يصبح بإمكانى التحكّم فى ما ستفعله بى، أرضخ فى النهاية للتحديق فى حروفها مضطرا، لكنّها على أيّة حال، أى الكلمات، تفشّ الغِل وتملأ النفس بالأمل الوهمى عن الغد والمستقبل وترسم لوحات من تصاوير على الماء، يجرى النهر، ويظل التحديق فى الكلمات كما هو، وكأنّها ذخيرة حقيقيّة.

أحسست بأن تركيزى ينساب من بين أصابعى، كنتُ أقرب لمريض فى غرفة العمليّات قبل ثوان من سريان البنج فى عروقه، والطبيب يسأله. اسمك. سنك. عنوانك؟ كيف تذهب لبيتك؟. أركب ميكروباص. ميكروباص؟ نعم. ميكروباص هه؟ نعم. متأكد؟ نعــــــ.. ميكروباص؟ نـــــ.. ميكروباص؟.. عدم. ميكروباص.. ميكرو. ميــــــ.

إحساس تدريجى بالانسحاب من الناس والأحداث، هكذا أشعر، فبعد أن حاولتُ إقناعهم خلدت إلى الراحة واشتهيتها، فمن يرد إصلاح هؤلاء الناس يتركهم ينشدون أغانى الرعاة والصيّادين دون تدخّل، لا يُفسد عليهم متعتهم، كانت روائحهم تحتشد فى أنفى، كثيفة مُكدّسة، تنفخنى، أحس بها، وبهم، كأنى صرت كُلّهم، جميعهم فى شخص واحد الذى هو أنا، فلا داعى بعد ذلك لنقاشهم، سأتركهم، هم الذين يشعرون بأنّى فقدتُ شيئا ما، ولكن لنقل الحقيقة، حتى هذه اللحظة وأنا لم أشعر بالفقدان الكامل، فقط أشعر بأنّى فى مشهد لم يصل معناه بشكل جيد، كترجمة الأفلام التجارية.

* * *

ما أن تخطّيتَ العتبة حتّى هلّ عليك صوت خشن لا يمكن أن يكون صوت جدّتك:

إحم. إحم.

ف البداية، اعتقدتَ بأنه صاحب البيت جاء لأخذ الأجرة، تبدد توقعك عندما نقر على كتفك من الخلف صاحب البيت، ثم بكفه ربت، وقال:

حمد الله على السلامة يا أستاذ عمر. جدتك وزوجها ف انتظارك.

توقّعتَ أن يكون الأمر قد اختلط على الرجل العجوز، فلا بد أنه يُكلّم شخصا آخر، جدّتك وتعرفها جيدا، أما الكلمة الأخيرة فلم تكن مضبوطة المقصد، ربّما خانته مخارج الألفاظ، زوجها؟! زوج من. جدّتك؟!

برغم ابتعادك عن البيت لأسبوعين فقط، فكأنّك غبت دهرا، كان البيت مدهونا بالأزرق ومرسوم على واجهته طائرة وسفينة وجمل، وعبارات التهانى بالحج المبرور تملأ فراغات الجدران الخارجيّة، أما المدخل فالبلاط فيه لم يزل مشبّعا برائحة الأسمنت، وورود صناعية تقودك إلى الغرفة التى كنت تعيش فيها مع أمّك وجدّتك، ولكنها زاهية بشكل لافت، طرقتَ الباب بالراحة أولا، لم يفتح أحد، كررت الطرق بهمّة أعلى ففتحت لك جدّتك، ف

البداية، لم تكن جدّتك بشكل مؤكد، كان ظهرها المُحْدَوْدَب قد أصبح شبه مستقيم ولون بشرتها تفتّح قليلا، وركّبت عدّة أسنان نفخت شدقيها وورّدت وجنتيها، لا، ليست عِدّة، هي أسنان حقيقيّة نظيفة ومتساوية. كان وزنها قد زاد قليلا عما تركتها، رحبتْ بك بمخارج ألفاظ سليمة النطق هادئة النبرة، ثم جلستْ وقرفصتْ فوق سريرها الحديدى الذى كان مُعدا لاحتضارها منذ أيام. بعد هدوئك من فورة المشوار رأيت المكان بصورة أوضح، فالحصير تبدّل سجادا، ومكان سريرها وُضعتْ ثلاجة كبيرة لها باب بيضاوى، وأمام الشبّاك تسريحة مُنظّمة مرصوص فوقها علبة ماكياج كاملة، وفى أدراج الكومودينو الذى كان مخصصا لشيل العلاج وبرطمان العسل الأسود، رأيت أشياء مرصوصة لم ترها من قبل فى بيتكم، مشدّات صدر ملوّنة وزجاجات برفان بأغطية مربّعة، وقوارير كُحل على شكل تماثيل صغيرة.

أغلقتْ جدتك الدُرج بعد حملقتك فيه طويلا، وأثناء غلقه اهتزّت يدها بغوايش ذهبيّة تغطّى من ذراعها شِبْرا، فخبّأتْها بطرف جلبابها النبيتى اللمّيع، كانت التغيّرات صادمة ولا يمكنك تخيل أن جدّتك تعيش فى هذا البذخ وهى فى هذه السن، بمناسبة السن، هُيئ لك بأن الزمان عاد إلى الوراء وجرف جدتك لسنتين أو ثلاث، وربما خمس أو سبع، تأملتها مرة أخرى، للحق، حوالى خمسة عشر، إذ لم ترها بهذا التركيز والوعى منذ كنتَ مراهقا وتعقد المقارنات الدائمة بينها وبين أمّك، تشتت تركيزك وارتبك تقديمك وتأخيرك،

تشوّشتَ لوهلة، ثم عدت تتابع ما تغيّر فى حياة جدّتك، تبدّلت الهرجلة فى ملبسها إلى شكل متقن من ألوان متناغمة المقاسات والهندام، كانت ذاكرتك تحتفظ بآخر مشاهدها وهى فى ثياب المجانين المبتذلة، تضحك وتلمع عينها لمعة تائهة، تشعر بأنها ستبتلع بعدها الكون، وكانت أكثر حركاتها شيوعا هى الرقص المتشنّج، و"العجوز لّما يتدلّع يكون مثل الباب المخلّع"، هكذا كانت أمّك تقول.

جلستْ جدّتك مشدودة الصدر باسمة الملامح دقيقة اللفتة. عنقها كأنه نصب تذكارى مثقل بالزخارف، تلمع عقودها مدلاة فى دوائر ذهبيّة صغيرة. من شرودك المتواصل سحبك صوتها:

مساء الفُل.

وتشعر بأنّك فى ورطة أكثر من إحساسك بوجوب الرد، كان جرَيان كلمة فُل على لسان جدتك يستدعى الغرابة، فهى لم تعتد قول مثل هذه المفردات التى يتداولها أصحاب المهن ورواد المقاهى، ولكن من يعلم. ربما ستستوعب عندما تفهم، حاولتَ ترتيب ذاكرتك لتمكّنها من دس التغيّرات الجديدة فى مساحاتها الفارغة، حاولت تذكّر وقائع محددة تعود عن طريقها لرشادك وتستطيع هضم ما يحدث من حولك. ساورتك بعض الشكوك فى اتصال جدّتك بعوالم أخرى بعيدة، فقد كان زوجها الذى هو جدّك لأمّك تاجرا يبيع الدخان والمعسّل، ويُقال أن اسمه كان فايز، وسُمّيتْ ماركة المعسّل على اسمه، معسّل فايز، اكتسب بمرور الزمان شهرة إقليميّة، وكان جدك هذا طيبا حد السذاجة، ولا تعرف كيف

تجتمع فيه صفتان متناقضتان، النجاح الكبير فى التجارة، والطيبة التى لا تتوفر إلا فى البهاليل، على آية حال، كان هذا رأى الحكايات المتناثرة هنا وهناك وتنمو مع القيل والقال والمتشابهات بينهما. لم يكن يغريك فى حكايته مسألة التجارة والمعسّل بقدر ما كانت تسحرك سيرته فى حياته الأخرى، حياة أقرب لحلم، ولكنّه حلم كالحقيقة.

كان جدك الذى لم تره يمتلك قدرة غريبة، فيربط بين ما يراه فى الأحلام وبين المادة التى تتشكّل منها الحياة فى الصحو، أو بمعنى آخر، كان يُحَوِّل ما يراه فى أحلامه إلى مادة ملموسة، فلو أنّه حلم بأصناف طعام جديدة يصحو من نومه ليصنع مثلها، ولا تقر له عين إلا بتجريب ذلك، وكان يحالفه النجاح بعد عدّة محاولات. ولكن المرة التى وقف فيها شعر رأسك، كانت عندما ذُكر جدّك فى الحكايات، جاءك يسعى، عَبر أربعين عاما من الغياب، اقترب على بساط من الخيال، وكان يحلم، رأى فى منامه ذبابة تتعلّق بخيط عنكبوت تمكّن منها، وهى تلفّ ببؤس فى محيط واسع من الأسفل ولها مركز واحد فى السقف، دارت كثور يلف فى ساقية، لا يرى إلا حلقة الدوران وحافة البئر، طنّتْ الحشرة الصغيرة طوال الحلم، صحى جدّك من منامه وروحه مُعلّقة فى الهواء كالذبابة التى شاركته الحلم، وما أن استقر ورأى ملاءة السرير المزهّرة حتى توقّف عن الدوران فى الأفلاك، ولكنّه فور فوقانه أخرج ورقة علبة معسل من سيّالة جلبابه، كانت مخطوطة ببعض الحسابات، أخرج قلما، ورسم المشهد كما رآه قبل أن يتوه فى غابات النسيان. بعد ذلك بأيام قليلة صنع أرجوحة فى بيته الواسع القديم، أريكتان صغيرتان، الجلسة

فوقهما مُريحة، كان لهما مركز واحد فى السقف البعيد وتدوران على رولمان بلى فى قطر مُعلّق فى قُبّة بعيدة، يجلس جدّك على كرسى وجدّتك بجواره، وكان يطيب له أن يضع يده فوق كتفها قبل الدوران، وعندما تلف الأرجوحة يأخذ مكانه البعيد عنها، وتدور الحلقة الكبيرة فينفض من دماغه كل الهموم وهو يتابع أحبالها المشدودة، وما أن يتحرّك فى السماء القرص المستدير حتى تلف ذاتيًا بدون تدخل من أى طاقة حرق أو توصيل كهرباء. تتطوّح أذرعها الكثيرة فى الهواء وتصنع غلالة من أسلاك تشبه الأصابع، وعند دورانها بقوّة تتداخل الخيوط بالأذرع وتصنع حالة من الحلم الناعم المتواصل.

باغتتك صوت جدتك بسؤال قطع كل موصول فى دماغك:

– لماذا جئت إلى هنا الآن. وأين أبوك الذى ذهبت لزيارته قبل أسبوعين؟

(5)

أصبح بإمكانى الآن أن أسمّى هذا العام بعام العُرى، على غِرار عام الفيل وعام الطوفان وعام الحزن.

ظلال البشر العارية تطبق فوق صدرى، أتقوّس من فرط ثقلها، لحوم ورديّة تجتاح كُل ما يقابلها، أيام ما كانت الأجساد مستورة كان يمكننى رسم التنبؤات بسهولة، أما فى عصر السفور فلا يمكننى أى تخيّل، لم يعد للناس من حولى حديث سوى عن عُرىً، ولم تعد فى نفسى أسئلة إلا عن عُريهم، وكأن مسألة القلع واللبس أصبحتْ هى جوهر الوجود وسبب النوائب، كيف نمت بذور هذا الجنون؟ وفى أى دماغ جهنّمى تفرّعتْ وتشعّبتْ؟ على أية حال، كان اسم سنة العُرى اسما مناسبا وخفيفا، متى ولدتَ؟ فى غُرّة سنة العُرى، متى مات جدّك؟ فى خريف سنة العُرى، إنها إذن سنة العُرى.

– يمكن للعالم أن يخلو من الزرع. ولكنّه لا يمكن أن يخلو من اللصوص.

قال رجل لا أعرفه قاطعا استرسال أفكارى، ثم غمغم بلغة لم أفهم منها حرفا وانصرف، أى لصوص كان يقصد؟ من يسرق ما فى

الملابس، وبما أنّهم فقدوا ملابسهم فى ظرف تاريخى مبهم؛ فمن أين لهم ممارسة لصوصيتهم؟ هل سيسرقون الأجساد نفسها بعد ذلك؟

بدأتُ فى استعادة كلمات الرجل بشكل جاد عندما نشبتْ مُشاجرة بين اثنين من العرايا نشع على أثرها الدم بسرعة من ثقوب الجسدين، فلا ملابس تمتص السوائلِ كما كان فى السابق، أغرىَ اللون الأحمر باقى الجموع للفرجة، تحلّقوا حول المتصارعين وتركوهما يُصفّيان النزاع على مهل، كان سياج اللحم البشرى مغريا للمتقاتلين بأن يستمرا فى شجارهما، فقد أصبح لهما جمهور ينتظر نتيجة الصراع بشغف، هلل المريدون وصفّقوا بصوت مرتفع، دقوا الكفوف بقوّة على نغمة واحدة وحجلوا بأقدامهم فى نفس المكان، كلما ارتفع صوتهم كان ذلك يُحفّز على ازدياد وتيرة الصِراع، لم تكن معهما أية أسلحة، ولكنّهما استخدما الأظافر لحفر الأخاديد فى اللحم العارى، سرعان ما تبعها جريان السائل الأحمر وهو يئزّ ببطء، ثم يسيل خارج الأخدود، أصبح لكل منهما نصف جسد باللون الوردى والنصف الآخر باللون الأحمر، ازداد التصفيق وضرب الكفوف والحجلة، أصبح هناك سياج غير مرئى يفصل بين الجمهور والنجمين، سياج يعترف ضمنيّا بأنهما من الهالكين، أو على الأقل، سيُجهز أحدهما ويُزهق روح الآخر لا محالة، وما سيمر من وقت ليس فقط إلا تحصيل حاصل، المشجعون يُهللون ليقضى واحد على الآخر أجهز من كانت له الغلبة الجسديّة على صاحبه الضعيف نسبيّا، فوقع تحت قدميه كمحارب يهرسه جواد عفى، لم يعط الرجل المتفوّق جسديّا فرصة للآخر كى يعرض وثيقة سلام، ولم يعطهما الجمهور المتعجل للنتيجة فرصة لضبط النفس، والمعركة تسير فى اتجاه وضع الأوزار، الرجل المتفوّق يزداد تفوقا، والرجل الضعيف أصبح كخِرقة حمراء مبلولة،

كان منظرهما يشبه حلقات النكاح البدائيّة، عندما تقف أنثى مستضعفة وخلفها فحل يحفزه الاستقواء وتأكله الشهوة، ولابد لكى يفوز بها أن يثبت جدارته، فيهزّ عُرفه المنتصب فى الهواء ويُطوّحه ليزيد من طوله حتى تصبح اللحظة سانحة للإيلاج، ولا يفعلها إلا بعد تهليل إعصارى وتصفيق كموج بحر غاضب، وبعد استكانة الأنثى المستضعفة واستعدادها تماما لاستقبال السهم الطائش. وبعد أن يصبح كل شىء على ما يُرام ينفضّ المولد ويعرف كل واحد من الجمهور طريقُه.

لما عدتُ للمشهد كان قد تطوّر بشكل مُثير، الرجل الضعيف نائم على الأرض، لا دليل على الحياة فيه إلاّ نَفَسُهُ، شهيق ضعيف وزفير مكتوم يُحرّك صدره المسجى، والرجل المتفوّق جسديّا يضع قدما واحدة فوق صدر النائم المهزوم، لم ينقطع التصفيق والتشجيع برغم تحديد النتيجة، لم يُرضِ شغف الجمهور هذا الحد منقوص الإثارة. فُتح السياج البشرى وحدثت فيه ثغرة على مدد الشوف، ثم اقترب رجل هُيّئ لى بأنى رأيته من قبل، أعرفه، مألوفة ملامحه، محفورة صورته، إنه هو، نعم هو بذات نفسه، سيف باشا.

اقترب بمهابته المحفورة فى ذاكرتى، كان على مشارف حلقة الصراع، ولجها وأصبح فيها ثالثا بين المتحاربين، أخرج من طيّات ملابسه الكثيرة مقص الأشجار، أمسكه بيديه وطقطق به أكثر من مرّة، حفز ذلك الجماهير التى كانت فى حاجة لمن يلهب حماستها بأى ثمن، هاجوا وعلت أصواتهم بين الصفير والصياح والعواء. أعطى الباشا مقصّه للمنتصر وخرج، انضمّ للجمهور بنفس الكبرياء

والشمم، أمسك الرجل المتفوّق جسديّا بالمقص ورفعه فى الهواء لأعلى قدر ممكن فى حركة تحيّة للجمهور، ثم أمال الرجل الضعيف على جنبه وصوّب المقص الكبير ناحية عنقه، وبضغطة واحدة عفيّة رأت الجماهير ما أشبع غرورها وأعاد السكينة إلى نفوسها، تدحرج الرأس لمسافة مترين بعيدا عن جسد صاحبه، لم يلحق به خرطوم الدم، الرأس الذى كان يكبس الجسد طار، فتبددتْ أسباب الضغط. وهنا صمت الجمهور وخيّمت عليهم حالة من السكون والتأمّل، أما الصوت الوحيد فكان لسيف باشا، صفّق بكفيه الكبيرين، وحفّز صدى صوته الجمهور، وسُمِعَتْ كلماته تشق السكون:

- عفارم. عفارم.

* * *

قدّمتْ لك جدّتك قرصا من المشبّك يتر منه العسل، تذوّقته ثم التهمته، كان طعمه لذيذا، كأنّه معمول بالسمن البلدى، من فرط حلاوته لم تعطها منه قطعة، أشارت بيدها والغوايش "تخروش فيها على رصّة طويلة، حوالى عشرة أقراص من نفس النوع، كانت الرصّة لها خطوط طيفيّة الألوان مبهجة، ومغلّفة بـ"سليوفان" مفضض فيه فراغات شفّافة، ليس من المستغرب وجود نقاش بينك وبين جدّتك بخصوص التهام أقراص المشبك، ولكن المستغرب حقا هو وجود المشبّك هنا بهذه الكميّة والحلاوة.

كنت تشعر بأنّك فى عرض سينمائى وليس بإرادتك الخروج منه، على الأقل فى القريب العاجل، ومع ذلك فقد كنت مستمتعا

إلى حد كبير، نسيت عُريك واختفاء ملابسك للأبد، وتحوّلت رسميا لمكانتك السابقة فى العائلة، حفيد يجلس أمام جدّته، مع استمرارك فى التأمّل صرت تدقق فى التفاصيل من حولك، الغرفة تشعر فى تأسيسها بالذوق السليم، كرسيّان بمقعد هزاز، والأرض يغطّيها سجّاد أحمر، وسرير جدّتك الحديد مُرتّب بذوق، من فوقه ناموسيّة زرقاء جميلة غير مخدوشة النسيج. هُيّئ لك بأن الغرفة زادت مساحتها عن ذى قبل، يذكرك أحساسك هذا بمعلومة تاريخيّة عن عائلة جدتك تعود إلى حوالى نصف قرن، كان بيتها كبيرا منذ سنوات بعيدة، أيام ما كان جدّك فايز يتاجر فى الدخان وتُملأ حاويات السفن من مصنع المعسّل الذى يملكه، ولكن بعد موته بمرض مفاجئ ظهر منافسون كثر فى صناعة الدخان.

تفتتت تجارته، وتحوّلتْ جدّتك لذلك النوع الذى يُسمّونه ميسورا، اضطرّت بعد ذلك لبيع أكثر من نصف بيتها، اكتفتْ بغرفتين وصالة بالمنافع، هم كل ما نالت جدّتك مما ترك جدّك فايز، وكان من أسباب انطفاء البريق فى عينيها اضطرارها لتفكيك الأرجوحة التى صنعها لها جدّك على غِرار حِلمه الذى رأى فيه ذبابة مُعلّقة فى خيوط عنكبوت. فلم تعد جدّتك ترى الأذرع الطويلة المتطوّحة فى الهواء، ولم تعد أيضا تُمتّع نظرها باللف فى حلزونات الهواء الطلق، فتغيّرتْ نفسها وضاق خلقها.

ولكنك الآن تراها فى ثوبها القديم، أصبحتْ كما كانت أمك تصفها فى الحكايات.

انتظرتَ أن تسألك عن عدم ارتدائك لأى ملابس، أن تتعجّب من عُريك، فلم تسأل، ولم تتعجّب. هل كل شىء بالتعوّد يكون طبيعيّا؟ فى تلك الأثناء قامتْ جدتك ولاحظتَ بعد انتصاب عودها بأنّ جلبابها النبيتى ما هو إلا قميص نوم يُظهر من لحمها أكثر مما يُخفى، مقروط حتى ركبتيها ومن فوق بيّن كتفيها، وتقويرة كبيرة من عنقها. عادتْ جدّتك بعد قليل وهى تحمل كوبا كبيرا من الشاى الساخن، جدّتك، جدّتك أنت تصنع لك، لك أنت، كوبا ساخنا من الشاى؟! وضعته أمامك برقّة، حتى أنها لم تزعجك عند وضعه كما كانت تلقى بالأشياء من قبل، قبل؟ أى قبل؟ جدّتك تصغر وتجاعيدها تنفرد، حتّى عنقها الذى كان به جزء حاد مكان تفاحة آدم تَدَوّرَ، كان ينتصب من تحت ذقنها وحتى منتصف صدرها سيف رقيق من اللحم كورقة جُلاّش ليس لها أبعاد، وفكّها يُحرّك الورقة ويتحكّم فى هزّاتها المستمرة، كما لو كانت تزدرد شيئا وهميّا، أما الآن، ففكها متماسك وبصّتها مع بشائر الابتسامة تُذكّرك بوقفة الفلاّحة الموناليزا، لقد اشتريت منذ مدّة بعيدة بروازا لفلاّحة تحمل فوق رأسها بلاصا، ربما كانت جدّتك أكبر منها سنّا ولكنّها تشبهها، بالأدق كأنها أختها الكبيرة.

اقتحم جلستكما صوت مهيب وله من الفخامة ما يُجبر الآذان على الإنصات الجيّد:

- إحم.. إحم.

لم تلتفتْ خلفك، ولكنّك كنتَ ترى هيئة الآتى من ورائك بخطوات بطيئة من خلال نظرات جدّتك المترقّبة، زاد تبسّمها وهى

تقوم من مكانها وتمد له ذراعيها على شكل حُضن، وكنت بينهما تصارع فى مكانك محاوِلا الفهم، نظرتْ جدّتك فى عينك نظرة فيها قدر كبير من الحنّية لم تتعوده منها، ثم قالت بصوت متماسك:

طول عمره مؤدب. يقول إحم كثيرا قبل الدخول لأى مجلس. اعذره يا ولدى. فقد جاء من مسافات بعيدة لا يمكن قياسها.

على نفس وضعك المتوتّر، وبنفس وجهتك، كانت عينك فى عين جدّتك، لا تقوى على الالتفات للخلف، فسألتها:

من هو؟

فقالت وهى تترك مجالك وتذهب لمن مدّت له ذراعيها منذ برهة:

جدّك فايز.

(6)

أمسى العالم بالنسبة لى مسعورا، فبعد أن رأيتُ رأس الرجل تترك مجاله كرأس ديك وتتدحرج بعيدا، لم يعد شيء فى نظرى مُستبعدا، اصبحتْ أمنيتى الوحيدة أن أتدثر بمحار ويلقوا بى فى قاع محيط، لم أعد أتمنّى أن يكون صوتى هو هدير الكون وزمجرته، كنت كمن على يقين تام بفناء العالم وينتظر فقط يوم التتويج المشئوم.

كان سبب رغبتى العارمة فى الانزواء هو إحساس بألا شيء يستر سوآتى، ولا حتّى ورقة جوافة، وكان من يُشبّهونى بذلك التشبيه يُسقطون ما فى أنفسهم على مرآتى، فما يشعرون به لا يرونه، وما يخطر أمام أعينهم لا يصدّقونه، ليس ذلك فحسب، ولكنّى أنا، أنا صاحب أزياء الشرق، وأنا صانع ملابسى هذه، نعم، بنطلونى الجبردين الأسود، بكسرتين وجيبين خلفى، صنعته، نعم، أنا الذى صنعته وليس أى شخص آخر، وقميصى الكشمير اللبنى ياقته مُنشّاة بفضل حشو الفنهاوزن الثقيل، أنا عُمر الترزى، الأسطى عمر كما ينادينى الزبائن، أخذت أصيح فى هؤلاء السائرين عرايا:

"أنا صاحب أزياء الشرق، أنا مؤسس أزياء الشرق".

لم يسمعنى أحد، لا مُجيب على صياحى، سأفصّل لهم ملابس تسترهم، ربما استحسنوها وجاءوا بزبائن جدد، كيف أكون صانع ملابس والناس تتفق على أنّى عريان؟ ربما لأنّى صانع للملابس وصفونى بالعرى. كنت ترزيا منذ مدّة لا تسعفنى بتحديدها ساعتى أم عقارب، أخترع قصّات جديدة للزبائن، وكل جديد كان يأتى عن طريقين، إما ملل من القديم، وإما خطأ فى التقليد، وكانت الثانية من نصيبى، فأى تحريف يعتبر إبداعا، كنت أحاول عمل كسرتين فى بنطلون أحد الزبائن، فجاءتا معكوستين، وعندما حان وقت الاستلام أسعفنى الخيال باختراع مُسمّى لهذه الغلطة الشنيعة، كُلُونة، قلت له:

- لقد عملتُ لك كلونة.

فاستحسنها الزبون، وجاء بأقاربه وأصدقائه لأقصّ لهم بناطيل بكلونات، كانت هذه الغلطة سببا فى شهرة المحل، وأصبح اسم أزياء الشرق كالطبل، فرفعتُ سعر تفصيل البنطلون للضعف.

لماذا تركونى أعبر خارج البوّابة؟ كنت أسأل نفس السؤال بصيغ مختلفة: لماذا عبرتُ البوّابة. ولماذا توجد أصلا بوّابة تفصل بين الناس وتُصنّفهم ألوانا وأشكالا ونوايا؟ كانوا يسمعون أنفسهم فقط، أمّا صوتى فلم يكن يتجاوز حلقى ولم يعبر محيط جسدى، هل سأردُ عليهم بكلمة. وهل الكلمة ستنقذنى مما أنا فيه الآن، كلمة، لا مانع إذن، فسيدّنا نوح أنقذ الحياة على كوكب الأرض عندما نَطَقَ الاسم المئة من أسماء الله الحسنى، فعبرتْ سفينته الطوفان بعد عبور الكلمة لحنجرته.

مرّ على رجل عجوز، وبدون كلام أمسك بخناقى وقال:

– يا مُفترى. يا عدو ربنا. أتقف عريانا، يا أخى، استح، يا مفترى.

عندما قبض بأصابعه على ياقة قميصى حمدت الله فى سرّى، ثم صحت فيه وفى من حوله:

– ملابسى. فى يدك ملابسى. أنا لستُ عُريانا. ياقتى بين أصابعك.

تركنى الرجل وهو يساوى كرمشات قميصى ويُعيد وضع ياقتى لِما كانت عليه. تُهتُ وأصبحتُ لا أدرى على أى أرض أقف، نبرتى الداخليّة حائرة بين الرصانة والتوسّل، إلى أين أذهب، أنا، عمر، صانع الملابس وصاحب أزياء الشرق، فى الزمن المنصرم، وقبل أن يهلّ عام العُرى، كان مجرّد رؤية مثل هؤلاء العرايا تُعتبر لقيّة لأى ترزى، فرصة لانتعاش بنك القص ودوران مكن التقفيل السنجر، عمل العراوى وتركيب الزراير والكُبَشْ، ثنى الرِجل بالسراجة أو البيجة الخارجيّة، تركيب الكمر ولوكسات الحزام، وعمل جيب ساعة لكبار السن والموظفين، لو أن كُلا منهم فصّل طقما واحدا فقط كنت سأجدد المحل من الألف إلى الياء، أغيّر الإضاءة وأركّب بابا من زجاج السيكوريت، لأكتب عليه بالقطن الأبيض رقم السَنَة الجديدة وبجوارها كل عام وعملائنا الكِرام بخير، فى السنة العاديّة وليست سنة العُرى.

عندما تذكّرتُ كل هذه التفاصيل وقفت أمام الجموع السائرة أمامى، وقلت بصوت نسى فجأة بأنّه محبوس:

– أنا عمر الترزى. صاحب أزياء الشرق. أنا عمر سعيد إبراهيم.

* * *

الآن أصبحتَ أمام جدّك وجها لوجه، جدّك فايز، كان يقف أسفل صورته، الفرق بينهما أن الأصل ملوّن، ويتحرّك، قدمته جدّتك على نحو فيه من التفخيم ما يؤذى مشاعرك، قامت من مكانها ووقفتْ بينكما، أخذتْ تُشير بيدها إليه وهى تحدّثك. كانت جدّتك تبدو فى ثيابها النبيتى كفتيات الليل، تتقصّع أمام جدّك دون أى اعتبار لوجودك، يبدو أنهما تفاجآ بوجود حفيد شاب بينهما، انفرطتْ سيرة جدّتك كما تحتفظ بها ذاكرتك، وكان يبدو من معاملتها الرقيقة له بأنه جاء من سفر طويل، ربما كان يُصرّف بضاعة فى كازاخستان أو فى اسطنبول، فالمعسّل والدخان المحلّى لا يتم توريدهم إلا لدول شرقيّة. وكان جدّك يبحث عن العمالة الرخيصة ليُوفّر فى المصاريف، فكان يأتى ببعض السمكريّة وفاتلى الأحبال، ويجعل لهم أعمالا فى صناعة الدخان وتجارته، وكذلك استدعى بعض صانعى القلوع الذين كسدت مهنتهم وجعل لهم عملا فى تشوين المخازن وتعتيق المراكب بكراتين المعسّل، وتغيّرت مهن بعض الحمالين وصانعى براميل المخللات ليستقروا فى مصنع جدّك، وأصبحت مهنتهم الجديدة هى صناعة المعسّل. وبعد أن كانت الصادرات فى مصانع الدخان المصريّة لا تخرج عن دول مثل روسيا وسوريا واليونان، توسّع جدّك فايز فى توريد الدخان لدول

كإنجلترا والنمسا وسردينيا والسويد، وكان لذلك فائدة عظيمة، فقد جعلته يتحوّل بسرعة من أصحاب الصناعات الصغيرة إلى مصاف الأعيان وأصحاب الطين.

شذرات من بقايا حكايات تعبرك بملمسها الناعم، تجتهد ذاكرتك فى الاحتفاظ بها قدر الإمكان. دائما كنتَ ترى عبر الحكايات إسرافا فى الأوصاف ومبالغة فى الأحداث، خاصة عندما تتعلّق المسألة بمدح الصفات الحسنة كالشجاعة أو الجمال، ولكن هذا الإحساس تبدّد عندما تأملت جدّك فايز، فرأسه يلمع بحُمرة ريفيّة تربّت على العِز، وكِرشه لا يوحى بالترهّل بقدر ما يوحى بالشبع، عندما كان جدك غائبا كنت تتعامل فقط مع الاسم، وتركّب عليه أى جسم وصفات تشاء، كان اسمه يعنى نوعا متقدّما من النجاح، فايز، قبل رؤيته كنت تتخيّله كُتلة واحدة، ولكن التفاصيل شغلتكَ عندما رأيته واستوى كائنا من لحم ودم.

فتح جدّك الثلاجة وأخرج منها زجاجة مياه، رفعها على فيه فترلتْ فارغة، وضعها على الكومودينو وتكرع بصوت لا قرف فيه، ولكنّه يوحى بطمأنة الموجودين بأنهم فى كنف رجل قوى، ثم لبس شبشبه الجلد أبو حزام وأبزيم، وعند عتبة الباب قتل صرصارا ثم خرج. عاد بعد قليل وهو يحمل حديدا كثيرا، عمدان ومواسير وزوايا مربّعة، كُلّها مدهونة بلون وردى، كأذرع كائنات خرافيّة، بدأ فى تركيبها بمفصلات ومسامير، ثم شبّك الحديد فى بعضه بتمكّن

كالحدادين، رفع صُنعه فى الهواء فصارت قُبّة، يزيد قطرها قليلا على سقف غرفة، معشّقة فى بعضها وممسوكة بصرّة حديدية كبيرة مُعلّقة فى الهواء، منْ الأسياخ المتدلّية سيخان عليهما كرسيّان من قطيفة حمراء، مُزينان بشرائط ذهبيّة فيها تخاريم، دفعها جدك بأقل مجهود، فقد ركّب لها رولمان بلى وضبطه بميزان خيط، وبدأت الأرجوحة فى الحركة، ثم جلس جدّك على كرسى وجدّتك على الكرسى الآخر، وبدأت الطاحونة الحديدية فى الدوران، فى البداية لَفّتْ الصينيّة بطيئة لا تبدو أن قوى كبيرة تُحرّكها، ولكن سرعان ما تتابعت اللفّات وتوالت صرخات جدتك، خرجتْ منها أصوات بعضها يسكن فى منطقة العيب، وجدّك أيضا، هلل كمراهق يقضى يوما فى الملاهى، تفتتتْ صرامته المزعومة لّما هاجت الأرجوحة الحديديّة وانفلت عِقالها، لفّت بسرعة لدرجة لم تر فيها ملامح الراكبين، ولم تستطع الفصل بين الكرسيين القطيفة، ولا عَدّ الأسياخ الحاملة للمقعدين.

نزل جدّك من على بساط الريح، وتبعته جدّتك برشاقة، ثم أخذتْ ترمق الأذرع الورديّة المترنّحة فى الهواء وتلف من تلقاء نفسها بقوى ذاتيّة مجهولة، دسّ جدّك فايز كفّه الكبير فى سيّالة جلبابه وطلب منك أن تقضى له من الخارج شيئا.

فى بادئ الأمر التبس عليك طريق الخروج من البيت، البيت الذى قضيتَ فيه كل عمرك تقريبا، لم تعد تعرف كيف السبيل

للخروج منه، جدّك وجدّتك بالداخل، يغنّيان بانبساط لا مثيل له، يتمايلان بنشوة، ثم يُذكّرها بشحن الحاويات بدخان معسّل، لم تدم من الحياة أساطيل السفن ولا الثروة، طارت كدخان كراسى المعسّل، وتُحاول جدّتك ان تُهوّن عليه، فتُذكّره بحلاوتها وخَفَيان قدميه خلفها، تُبالغ فى التشبيه وتقول بأن شق جوز الهند بياضه كان ينكسف من بياض كعبيها، وشعرها النازل على ظهرها حتّى ركبتيها، كانت الرواية تبدو حقيقيّة، فقد أتقنتْ جدّتك دور الفاتنة وأجادت تمثيله، حتّى أنها بدت مُغرية لك أنت، وبسبب حبكة الرواية سقط عنصر الزمن وصرت مُعلّقا بين السماء والأرض.

لماذا أنت بالخارج الآن؟ آه، تتذكّر، رفع جدّك جلبابه أمامك، دسّ يده فى سيّالته وأخرج جنيها غريب الشكل والألوان، عجيب الحجم والرسومات، مَدّه تجاهك وقال:

خذ. اشترِ لك حاجة حلوة.

هل وأنت طويل هكذا يُقال لك مثل هذا الكلام؟ هل لم يزل يراك طفلا؟ باش الجنيه فى كفّك، لو لم تكن صغيرا فلماذا تبحث عينك عن أقرب بقّال؟ هل بالفعل راحت نفسك لحاجة حلوة بعد تعوّدك على طعم المشبّك؟ وهل يشترى الجنيه الواحد حاجة تملأ العين؟ كان جدّك يعطيك الجنيه بهيبة من أعطى مئة، أو ألفا.

وتشعر بأنّك على وشك النوم، تاه عن عينك طريق الدخول للبيت، كما تاه من قبل طريق الخروج منه، لا شك بأنّك تخلّصتَ

من شُحنة إرهاق طويلة، كانت المشاهد تتغيّر فى عينك كل برهة، تهيم فى ملكوت وتحلم بأشياء لم تكن فى الحسبان، لدقائق معدودة تشعر بإرهاق مَن صحى لتوّه من النوم، تمشى فى الشارع وأنت تتمطّع، تلفحك نسمة باردة تحدث فى بدنك قشعريرة محدودة، تشم رائحة شمعة تحترق وزيت عفن، وعندما تجاوزتها اختفت، وحلت محلها رائحة قرفة فاقعة، رائحة طيّارة لم تثبت فى أنفك طويلا، مشيت مفتوح العينين وأنت ماض فى طريق البيت، تبدّل الجنيه فى يدك ببعض مصاصات وأكياس مقرمشات وقرطاس لب، متى اشتريت هذه الأشياء؟ تقصد باب البيت وبرغم ذلك تتجاوزه مرتين، تعود إليّه ثم لا يمكنك الدخول، وقفت ساهما كما لو كنت تبحث عن عنوان فى كوكب غير مأهول، شعرت بأنّك فى مرحلة هُدنة ما، نفسك مطمئنّة وراضية، والأجواء من حولك ساكنة وناعمة، لا ضجيج ولا أصوات مُنفّرة. ولكنّك لاحظت شيئا، مُحيت جميع الرسومات من على الجدران، الجمل والسفينة والقطار، وأيضا عبارات الحج المبرور والذنب المغفور التى كانت تملأ كل الفراغات فى واجهة البيت، عاد الحائط كالحا كما كان، جيرُه مبقور ومحارته متآكلة، تأمّلت المدخل، كان قد تخلّى عن بلاطاته، تبدّلتْ رائحة الأسمنت بزناخة، والفواصل الحديدة الخضراء بين حزوز الجدران تقرطمتْ وبانت سوءات الأرض، عتبة منهوشة ودَرَج غير مكتمل، شبابيك واقع طبقة دهانها وورق شيشها ومُعلّقة بمفصّلة واحدة.

توقفتَ أمام البيت، حاولتَ تذكّر أول الخيط، وقبل أن يستقر وعيك على أحداث تجعل المشاهد مترابطة، كان صاحب البيت الذى رأيته منذ قليل وهو داخل المسجد يخرج منه، اقترب منّك ونقر ظهرك ثم على كتفك ربتَ، وقال:

- هل كنت مسافرا؟

لا.

- أين كنت إذن؟

لماذا تسأل؟

لأنك لم تحضر جنازة جدّتك منذ أسبوعين.

(7)

لماذا لا أدوّن كل ما مرّ عليّ من مشاهد؟ فربما هرب الوصف وأصبح من الصعب الإمساك بتفاصيله مرّة أخرى، كنتُ أكتب بعض المشاهدات وبعد أن أفرغ من تسجيلها تعجبنى، وكأنّ كاتبها هو شخص آخر غيرى، لم يكن ذلك بغرض الانتهاء من مخطوط روايتى، فأنا سعيد، سعيد بشكل ما لكونها رواية غير مكتملة، فقد كانت أمّى تقول دائما "إن كملتْ خاف منها"

كانت الناس تسير كقناديل قارب الزيت فيها على النفاد، أو كآلات فرغت خزّانات الوقود فيها، تخمد ملامحهم وينسحب منها البريق، وكلما مرّ أحدهم ورمى السلام كنت أشعر بأنّى لا أقوى على النهوض، تلفنى الأغلال من بين يدى ومن خلفى، وأسأل نفسى: لماذا انحرف مسار حياتى؟ عشتُ هذه الأحداث وأنا لستُ جزءا منها، كما الحال فى الأحلام، تماما أنا، يُهيئ لى بأنى البطل الذى خطط لكل شىء، ولكن كيف يكون البطل هو نفسه المتابع لسير الأحداث؟ فى الحلم وحده يمكن ذلك، هل أكون غائبا عن الوعى؟ هذا يمكن فى حالة واحدة فقط، لو بنّجونى وغمت شهرا، ولكنّى مستيقظ، هه، مستيقظ، أنا عمر الترزى، أنا عمر سعيد إبراهيم، صاحب أزياء

الشرق، كُل من يشعر بأنّه فى مكان ليس مكانه يكون ثرثارا، يستهلك كلاما كثيرا ومُعادا عن نفسه، اسمه، سِنّة، مهنته، عنوانه ومكانته، ولكن لماذا لا يرد علىّ أحد؟ لو كنت فى كامل وعيى واستيقاظى فلماذا لا يعيرنى أحد اهتماما ولو حتّى بلفتة؟

لماذا لا يوجد حولى أطفال؟ معنى البراءة الحقيقى، لو رأيتُ طفلا سأصدّق أنّى لستُ فى حلم، هل اخترقتُ الصلابة المادية حتى أوشكتُ على الاحتراق؟ وأصبحُ روحا تستعد لتمثيل دور جسدى ليس لها. مؤكد بأنّى فى مُنعطف طارئ وسأخرج منه قريبا، أحسّ بأن شعيراتى المخيّة تطقطق وتتحوّل لألياف، تجبرنى على التحديق فى الأشياء مليّا، هل هو الجنون قد أصْبَحَ على المشارف؟ هل كل ما أصبح مطلوبا منّى هو مقاومته قدر استطاعتى؟ يبدو بأن هذا التخمين الأخير صحيح بنسبة كبيرة، فقد أصبحت أواجه صعوبة وتلعثما عند البحث عن كلمات تناسب إحساسى، أشعر بأن صوت الكلمات فى مخّى يتمزّق كما تقرط شرشرة مسنونة حزمة برسيم، وأنا فى الخضم تائه، أحاول عبور غابة كثيفة، أتأمّل موقعى، فالرؤية طوال الوقت غائمة وتدعمها ستارة محفوفة بالألوان، وأنا من فوق الأطياف أعبر الناس كفقاعة، رغوة صغيرة تأمل بأن تجتاز أمواج المحيط، وأشعر بأن متابعتى للناس والأشياء نوع من الحملقة العمياء.

كنت أحاول جاهدا أن أتذكّر ما يمكن أن يغيّبه النسيان، أسن ذاكرتى لكى لا أنسى التفاصيل، ففى نهاية المطاف تُصَرُ الحياةُ فى منديل الذكريات، ولا يمكن إعادة الأحداث ذاتها أبدا، ترقد فى

ملكوت الغياب للأبد، كنت أتلعثم وأنا أوجز ما رأيته فى كلمات أو جُمَل، كلّما تفوّهت بكلمة خاننى معناها واستعصى على الفهم.

أشعر بالمزيد من الانبهار المخلوط بالتوجّس عندما يمر أمامى شخص عار، رجلا كان أو امرأة، بدأ النوع يتماهي ويفقد حِدّة الفصل، يرمي السائر السلام بمنتهى العاديّة، يقوم بملاطفتى بتغيير صيغة السلام أحيانا، حركات تُبيّن حُسن النوايا، ولكنّها أيضا بها شفقة على حالى العارى كما يروننى، كنت بالنسبة لهم غريب الأطوار، وكانوا بالنسبة لى مصابين بلوثة عقليّة، وأسأل نفسى: لماذا لا نتلاقى على أرض واحدة؟ اقترب منّى شاب لا أعرفه وقال:

– لماذا تقف عاريا يا أخى هكذا؟

خلعت الجاكيت "الفايبر" وأمسكت بقميصى من عند الأساور ومددت يدى له وأنا أصيح:

– هذا قميصى. أنا مكسو بملابس وحياة أمّى. حتى شوف. شوف.

فرد علىّ وكأنّ صوته يأتينى من الآخرة:

– لا ذراعك عارية. حتى شوف أنت. شوف.

برغم تأكّدى من صحّة إحساسى، فإننى كنت أثناء الحوار أشكُ فى نفسى، كل هؤلاء الكومبارس يمثلون دورا معلوما ويبتغون نتيجة ما، هل يريدون أن يعيدونى مرة أخرى خلف البوّابة؟ ولماذا سيريحهم ذلك؟ ربما سيريحنى أنا، على الأقل كان النزلاء والأطباء يلبسون ما

يزيد على الحاجة، كانت رؤية سلبيّة بالفعل، ولكنها الآن تحوّلت لرؤية إيجابيّة أكثر مما يجب، ستُحرق شعيرات الإبصار بسبب قسوة التغيير وكثافته، كنت هناك خلف البوّابة أضمن لقمتى، أما الآن فلا أحصل إلا على اشمئزاز المارين وتعاطف المحسنين، كيف وصلت لهذه الحال؟ هل ضُفِرَتْ قصّتى مع قصص مَن حولى مِن الناس وأصبح من الصعب فك اشتباكها؟ هل كان يجب علىّ التشبث بمنطقى ولغتى مهما كانت التضحيات؟ لقد سمعت أسماء يُخال لى بأنّها ليست مصريّة، فهل يوجد مصرى اسمه سيف باشا؟ وهل يوجد أحد الآن يقول كلمة مثل عفارم؟ أيكون الرجل تركيًا؟ تبدو الكلمة قديمة وتراثيّة، هل عُدت بالزمن أو عاد بى؟ ذاكرتى لا يمكنها استعادة أزمنة تطير فيها رؤوس العباد ويبقون برغم ذلك على قيد الحياة! هل يحتاج الفصل فى هذه المسائل المربكة لأطلس جغرافى أو تاريخى أو فهرس للأماكن؟ يُهيئ لى بأن هذا الموضوع يحتاج حفرا فى الأعماق، فيختنق عالم، ويولد عالم آخر مختلف، مختلف تماما.

شعرتُ بفتور نسبى ورغبة كبيرة فى الانزواء، انطويت وقرفصت، أحسستُ ببرد شديد يفتك بضلوعى، برغم الشمس الساطعة والضوء المنتشر.

* * *

كانت رحلة غريبة كشفها صاحب البيت، لم تتبدد خلالها شكوكك، كنتَ تشعر بأنّك ستقابل جدّتك عمّا قريب فى مكان ما، ستقابلها وتتحمّل جنونها، كان رأسك مُهدّلا كشجرة مثقلة

بالثمار، وأفكارك مُرتبكة، تغوص فى الأرض وتشعر بها تبتلعك، كأنّك تقفُ فوق رمال ناعمة. دخلت البيت مُندفعا كالمجنون، نكشت الدولاب وجبت عاليه واطيه، وقعتْ ملابس جدّتك كُلّها على الأرض، هبشتَ بأظافرك كل المحتويات لتبحث عن شىء واحد، الكفن، أين كفن جدّتك الذى اشتريته لها منذ أسبوعين؟ فصاحب البيت لا يهمه إلاّ دفع الإيجار أوّل كل شهر، وكثيرا ما كان يهذى، ويكذب أحيانا، لا يثبت أبدا على رأى، فلا يجب أن تصدّقه، ستبحث بنفسك عن جدّتك.

تخلّعت ضُلف الدولاب المخلخل، ووقعتْ كل المحتويات، زجاجة عطر قديم على شكل تمثال، وجزء من قرص مشبّك ملزوق فى جلباب نبيتى هالك النسيج، ومكحلة سوداء مخرومة، لم تجد الكفن الذى استقرّ منذ مدة داخل تجويف مصلّية لا يستخدمها أحد، المصلّية موجودة ولكنها فارغة. لو كان صاحب البيت يُخرّف فأين جدّك فايز، كان يقف هُنا، لا، بل هُنا، أين أرجوحة الهواء المُعلّقة بصُرّة من الحديد؟ وأين الكرسيّان المكسوّان بالقطيفة؟ بل أين جدّتك نفسها؟ هل ماتت حقا؟ جعلتك هذه الملاحظة تستغرق فى التأمّل، هدّك التعب والإرهاق من جديد، عاد البيت فقيرا بلا أم ولا جدّة، خرجت إلى الشارع، قابلت صاحب البيت للمرّة الثالثة، فوقَف أمامك واثقا وقال:

ماتتْ، صدقنى ماتت، لّما جاءها كثيرا فى مناماتها شخص توفى منذ زمن. كانت تهذى بكلمات لم يستطع أحد فهمها.

مرجيحة حديد لها أذرع تتطوّح. مصانع دخّان كبيرة. مسكينة. الله يرحمها.

تركته وجلست مقرفصا فى ركن على حرف المصطبة النائمة أمام البيت، لم يكن همّك كما فى السابق منحصرا فى متابعة السائرين فى الشارع، ولا حتّى فى الاهتمام بمن يلبس ومن يقلع. ولكن اهتمامك انحصر فى فك شفرات كُل ما حدث، ومحاولة تفسيره من جديد.

(8)

فى هذه اللحظة، فيها بالذات، تساورنى الرغبة فى العودة من جديد خلف الأسوار، هل وصلتُ إلى هذا الحد؟ أعود إلى البوّابة برِجلى؟ كان خروجى منها بمثابة مُعجزة، فكيف أرجع مرة أخرى للسجانين؟ حياة أى إنسان مليئة بالصراع من أجل لا شىء. كرهتُ الصراعات وأريد العودة لأعيش بطريقة طبيعيّة تحت حكم الحرّاس من جديد.

رجعت إلى المحطّة مرّة أخرى، أنتظر الميكروباص الذى لا يتغيّر لونه، ولا سائقه، أستقلّه كبساط ريح بأربع إطارات، هدّنى الانتظار واحتجت طوال الوقفة لإنفاق طاقة عصبيّة كبيرة، تأخذنى الأفكار وتدور بى حول سؤال واحد: ماذا ارتكبتُ من أخطاء حتى يُفعل بى كل هذا؟ لقد خرجتُ من البيت الذى تركتُ فيه أمّى وجدّتى على أمل حل مشكلة أبى، فتحوّلتْ حياتى نفسها لمشكلة لا حلّ لها. حاولتُ دفس لونى الرمادى الذى هو أصل الحياة عن أعينهم، خرجتُ لأجد جميع الناس لا يعرفون إلا لونين أيضا، ولكن بعد أن تركتُ المستشفى فشلتُ فى تحديد أرض أقف عليها، استبدّ بى يأس مُطلق، وأردت الابتعاد عن كل ما يربطنى بسيرة من رأيتهم فى رحلتى كُلّها، أصبحت أرى الناس ككتل صلبة لا تتميّز عن باقى الجمادات

بشيء، لا أحتاج بينهم إلاّ لصَدَفة كبيرة تُخفيني عن الأنظار، فلا ما أراه يقتنعون به ولا ما يرونه يروق لى، كأننا صرنا نوعين من الناس لا صِلة بينهما، لا يربطهما ما يربط سربا من طيور أو قطيعا من غنم، دائما يسود خيالى ضوء باهت بلا ظِلال، حاولتُ معرفة ما يشغل خيالاتهم وفشلتُ، كانوا يتدفّقون أمامى ثم يعبروننى، أشعر بهم كأثير حلم يمر من خلال ثقب صغير، ينتشرون فى كل الأماكن ويحتلّونها، ينادون على بعضهم البعض بلغة هُم فقط يفهمونها، يخترقون حُجُبى إمّا ببطء وبلادة وإمّا بإيقاع لاهث سريع، وفى الحالتين لا يمكننى الالتفات إليّهم، فى البطء يمرّون كالمرسومين فوق صفحة ماء أُلقى فيها بحجر، وفى السرعة يمرقون كأشياء لم تمر، وفى الحالتين أشعر بأنّى أقفُ وحيدا، وخائفا.

فى لحة كأنّها الطيف جاء الميكروباص ليحملنى إلى البوّابة مرّة أخرى، قبل ركوبى لعِبتْ فى دماغى فكرة، لماذا لا أستفزّ السائق هذه المرّة؟ سأسأله، ما رأيك فى الجاكيت "الفايبر" الذى ألبسه؟ لم أكذّب خبرا، جسلتُ بجواره، ولّما سألته أجاب: ولكن القميص يعجبنى أكثر. وهُنا تأكدتُ من أنّى أنا، أنا نفسى عمر سعيد إبراهيم، عمر الترزى وصاحب محل أزياء الشرق، ولكن السائق بدا عجوزا وأكبر بكثير من المرّات السابقة، كان له طقم أسنان يقع من فكّه العُلوى عندما يضحك، ورأيتُ شعره خفيفا وفزعا كقش الأرز، ولكنّه هو، هو السائق الذى يتجوّل بى بين الأزمنة المتعاقبة، لم يكن أحد معى من الركّاب، حتّى فى الميكروباص صِرتُ وحيدا، تنفّس الرجل بعمق وقال:

– لماذا ستعود إليهم؟

ولم أرد عليه. كانت الرغبة فى الخروج من هُنا تنهشنى، بأى طريقة، بأى ثمن، وأصبحتُ أضغط على نفسى لكى لا تطلب الخروج للعراء، كنتُ أفتقر للحريّة، والآن أصبحتُ أخشاها، بينهم كنتُ أشعر بوجودى ووعيى، انقباضات وتعبيرات الآخرين تساعد الدم فى عروقى على السريان، لم تسعفنى ذاكرتى اللفظيّة على التحكّم الكامل فى نفسى، تمر بى تصوّرات كثيرة بلا عدد، تتزاحم، فأضعها بلا وعى كامل فى الجزء الافتراضى المسئول عن استرجاع الحقائق، ثم بعد ذلك، لم يعد باستطاعتى تمييز ما مرّ عما ينتظر دوره فى المرور، ولا ما حدث لى عما حدث لشخص آخر.

توقّف السائق أمام البوّابة، نزلتُ ووقفت، أخرجتُ من جيب الجاكيت "الفايبر" جنيها غريب الشكل والألوان، عجيب الحجم والرسومات، نظرت إليّه وتذكّرت، لقد أعطانى أحد هذا الجنيه فى مهمّة قريبة، أو حلم ما. لا أتذكّر كان جنيها قديما، مددتُ يدى به للسائق فقال وهو يُطلق ضحكة دوت فى المكان:

– لم تدفع فى المرّة السابقة. ضعه فى جيبك. رُبّما فصّلتَ لى به قميصا فى محلّك، فى أزياء الشرق، قميص يشبه قميصك الكتّان اللبنى الذى ترتديه الآن تحت الجاكيت "الفايبر" لا تقلق. الحساب يجمع.

هذا الرجل يعترف بأنّى أحملُ فوق جلدى ملابس، ولكنّه لا يعترف بذلك للناس من حولى، قالها وهو يستعد للانصراف، تركنى

وحدى كما فعل من سبقوه. سأخلع عنّى ملابسى حتّى أريح كل من يرانى، بالفعل، بدأت فى خلع الجاكيت، ثم فككتُ زراير القميص، والبنطلون، لم يبق إلاّ اللباس، فخلعته هو الآخر، جمعتُ ملابسى وصررتها فى الجاكيت، ربطتُ كُميّة كبقجة، وقبل أن أصل للرجل الذى تعرّف علىّ، السائق الذى عرف أنّى عمر الترزى، وصاحب محل أزياء الشرق، قبل أن أصل لسيّارته طار بها، فى لمح البصر اختفى، لم يبق منه سوى كلمات تطن فى أذنى بجرْسها، ولم يبق من سيّارته إلّا غُبار الطلعة الأمريكانى المتهوّرة. توقفتُ أمام البوّابة لأحدد ماذا سأفعل، إذ إنّى حتّى هذه اللحظة لم يكن باستطاعتى تحديد مصيرى بشكل واضح، وقفتُ عاريا لأوحّد الرؤية، خلف البوّابة يقف رجل الأمن الأسود النحيف الذى رأيته فى المرّة الأولى، اقتربتُ من البوّابة بحذر، لمستُ حديدها كأعمى يتحسس بشرة أنثاه، اقترب الرجل الأسود وضحك فبانت أسنانه البيضاء وقال:

– لماذا جئت إلى هنا، لماذا جئت مرّة أخرى؟

وقفتُ والملابس مصرورة فى يدى، تنسّمتُ هواء مُنعشا وباردا، ضربتْ المكان إضاءة قويّة وصادمة، التفّ حولى جمع من الناس، ملامحهم جديدة لم أرها من قبل، فى نفس اللحظة التى رفعت فيها ملابسى فى يدى كَراية استسلام ووقفتُ عاريا، كانوا جميعا قد كَسَتْهُم الملابس.

القسم الثالث

الاختيار

(1)

الآن، أتذكّر كل شيء، كل ما حدث حدث وكأنه بالأمس، كانت العتمة سائدة، وأنا أحدّق فى طاولة فوقها أوراق بيضاء، وهُيئ لى أن الأوراق المصفوفة لم تلوثها الأفكار بعد، وبجوارها أوراق أخرى ملوّثة، رواية لم تكتمل، وفى معصمى ساعة تسيّرها تروس، وتدور تحت باغتها عقارب، حركتها بطيئة كالنبض، وتُثقل يدى بأستيك له حلقات مفصليّة على شكل جلد ثعبان، وجفنىّ، تشدّهما الجاذبيّة الأرضيّة فيشتعل خيالى، ليُكمل عمليّة التلويث، ويُتم الرواية التى لم تكتمل بعد.

سمعتُ دويا حادا كطبل النقرزان، وأُطلقت فرقعات من مدفع مُزعج حوالى مئة مرّة، بعدها قام أحد التمرجيّة بتسليمى أبى، بالأدق أعطانى رأسه، حملتُ الرأس بيد، وبالأخرى تسلّمتُ بعض الكساوى القديمة الخاصة بجسد أبى المفقود، كانت مصرورة فى بقجة، استوقفنى رجل الأمن الأسمر الطويل وأعاد لى رسوم الزيارة التى دفعتها قبل أسبوعين، تقريبا قبل أسبوعين.

فى البداية، أوقف لى أحد الحرّاس حمارا، وفوق برذعته فَرَشَ سجادة ناعمة، جلستُ فوقها وأخذتُ الرأس فى حِجرى، اهتز الحمار حتى أصابنى الخدر، ونمت، قال لى أبى الراقد فى دفء ملابسى:

– إلى أين نحن ذاهبون؟

فنظرتُ للكيان الذى لم يعد يتعدّى الشبر وأجبت:

– بلاد الله واسعة.

صمت أبى بعد ذلك وكأننى أعطيته ردا، حاولتُ تعديل فوطة من البفتة كانت مربوطة حول ما تبقى من عنقه ليبدو وجيها بقدر المستطاع، فى البقجة كانت مدفوسة بعض الشيلان الكشميريّة الملوّنة، بدت قديمة الطراز إلى حد ما، ذكّرتنى برائحة مستديمة تخرج من ساعتى أم عقارب، مزيج من عرق قديم غير مُنفّر مع رائحة مسحوق غسيل تعرّض للبخار، تحتوى البقجة أيضا على حذاء أحمر فيه تعاريج غُرز مشغولة، وسيور تنتهى بتوكة عريضة، يبدو الحذاء قديما هو الآخر، وبما أنّى لم أكن أعرف شيئا عن أبى منذ أيّام قليلة؛ فمن الصعب كذلك أن أعرف شيئا عن ملابسه. تحرّك الرأس وأوشك أن يهوى من على ظهر الحمار، فتح أبى عينيه فى اتجاهى وقال:

– هل خرجنا بمحض إرادتنا؟

– لا أعرف.

– هل نفحنا أصحاب المستشفى قراطيس الوهم؟

- لا أعرف.

كان الحمار يسير بنا عبر طرق تبدو معلومة له من قبل، فلم يتوقف ولا مرّة واحدة، ارتفع أذان العصر منذ قليل، والشمس تُلوّن صفرتها الأرض، ويضيق الأفق ويختنق، نبدو أنا وأبي والحمار كما لو كنّا نسير فى عالم خيالى، أو كأننا وُضِعنا فى قمقم كبير من نحاس، تمهيدا لاندفاعنا دخان كثيف من بزبوزه.

مسحتُ فم أبي بالبفتة المعلقة تحت فكه، كان فمه مليئا باللعاب، ولّما ارتاح وأيقن بأن منظره أصبح على ما يُرام سألنى:

- هل أنت حاوى تأكل الزجاج وتلاعب الثعابين وتقفز من أطواق النار؟

- لا لماذا تسأل هذا السؤال الغريب يا أبي؟

- لو لم تكن كذلك فكيف أخرجتنى إذن؟

كان من الواضح أن الرأس عندما يكون وحده يُفكّر بطريقة مختلفة، فقد شرحت لأبي فى السابق بأنّى لا يد لى فى إخراجه من البوّابة، فَهُم الذين أطلقوا سراحنا برضاهم، لم يبدُ عليه الاقتناع، لاحظت فتح البوابة على المصراعين، واختفاء المستجوبين فى الداخل والخارج، فمن شاء فليدخل ومن شاء فليخرج، بعدما سرنا لمسافة قليلة، أو بشكل أدق، بعد سير الحمار بنا لمسافة قليلة، كانت من خلفنا تسير حمير تحمل مرضى ومتعلقات وزوّارا، ولكننا كُنّا فى أول الموكب، أو الدليل، اختفت المعالم التى أعرفها وظهرت أمامى بوّابة

خشبيّة كبيرة، سُمكها يزيد على سمك جدار وأطول من بناية من ثلاثة أدوار، يقف أمامها نفس فريق الحرّاس الذين تركوا بوّابة المستشفى، ولكنّهم كانوا أكثر عددا، يفتّشون الداخل والخارج بدقّة.

وما أن اقترب ثلاثتنا حتى فتحوا لنا البوّابة على آخرها، عندما أفسحوا الطريق أصدرت البوّابة الخشبيّة شحيرا كساقية فاسدة، تأكد أحدهم أولا بأنى أحمل الرأس فى حجرى، وسأله حارس آخر على الضفة الأخرى:

– هل وقع الجزاء؟

فأجابه الحارس الأول وهو يتفحّص رأس أبى ويفرك أصابعه:

– وقع.

وقبل عبورنا أنا وأبى فوق دابتنا، هشّ حارس ثالث على الحمار بقرف، ركنه أمام البوّابة ونحن فوقه، فقلتُ له محاولا لفت انتباهه لحالنا:

هل يمكننا العبور؟

نظر الرجل لرأس أبى الراقد فى حِجرى، وقال بعد أن سحب شهيقا عميقا:

– سنجعل من على الأرض جميعا يحترمون الحرّاس.

– هل يمكننا العبور الآن؟

سألته مرّة أخرى فملّس على لحيته وضم أطرافها فى قبضته وقال:

– بالطبع. يمكنكم. ولِم لا يمكنكم جدا. تفضّل.

* * *

الآن، أنت فى طريقك للمستشفى لاستلام ما فقده أبوك، وقفت أمام البوّابة كالمتسولين، انتظرت فى طابور طويل لا ترى آخره، كل هؤلاء لهم أشياء ضروريّة عند الحرّاس؟ وقبل أن تكمل السؤال الدائر بداخلك، اقترب منّك رجل أمن طويل وقال بصلف شخص محروم تقلّد وظيفة مرموقة:

أنتَ تنتظر سعيد إبراهيم. أليس كذلك؟

تعال معى.

تترك الطابور وتذهب مع الرجل الذى هُيئ لك رؤيته من قبل، جذبك من يدك فى أبوّة واتجه ناحية بوّابة أخرى أصغر من السابقة، ثم قال:

الجثّة سيأكلها الدود. الجثّة سيأكلها الدود.. الجثـــــــ..

أين سمعتَ هذه العبارة المملّة من قبل. ولماذا يقولها الرجل الآن وأنت تستعد لاستلام أبيك؟ تدخل دهليزا قصيرا وتجتاز بعده ردهة منحدرة، يبدو أنها كانت تستخدم لصعود وهبوط الكراسى المتحرّكة التى تحمل المرضى، بعد أن قطعت الطريق بالكامل فُتِح باب كأنّه لسرداب، دخله الرجل لبرهة وجيزة، ثم خرج وفى يده

شخص يسير معه، كامل مُكمّل، لا ينقصه إلاّ الرأس، قميصُه مقلّم عريض من الكشمير، وبنطلونه مكوى وله توكة مضبوطة فوق الكُبشة تماما، وحذاؤه لا ينقصه إلا ربط فردة واحدة وتلميع الفردتين، قال حارس الأمن وهو يبتسم:

هذا هو أبوك. سعيد إبراهيم. أين الحلاوة؟

مد يده اليمنى، وفى يسراه يتشبث أباك، يقوده الرجل، ويمشى أبوك بانتظام شخص له رأس ويتمتّع بجميع المشتملات، أخرج رجل الأمن الطويل من جيبه زعبوطا مقلما من القطن، دسّه فى كفك وقال:

هذا يخصّ أبيك.

فتبقيه فى كفه وتقول له:

حلال عليك.

قَنَعَ الرجل بالزعبوط، وضعه على رأسه بطريقة مُرتجلة وفكاهيّة، وكَفّ عن طلب الحلاوة. فسألته:

هل يموت أحد فى المستشفى هذه الأيام؟

فرد وهو سعيد بأن يوجه له أحد سؤالا:

- كل الناس تموت. تموت يا بيه. وهل يبقى أحد. كلهم يموتون.

سلّمك حارس الأمن الطويل أباك، ثم كبس الزعبوط فى الرأس، كان يبدو سعيدا وهو يترفّع عن طلب الحلاوة ويمنح الرأس زعبوطه. ولكن كالعادة، بدأتْ الأسئلة تنخر كل طمأنينة بداخلك. من أين تعرف بأن هذا الرجل مقطوش الرأس هو بالفعل أبوك؟ لم تشعر بأى نوع من أنواع كيمياء الجسد، لم تحس بأى انجذاب تجاهه، ولكن لم يكن هناك طريق آخر، استلمت أباك وسرت فى اتجاه البوّابة الكبيرة السوداء، خرجت وفى يدك ذراع تُضخ فيها الدماء، ولكنّك لا تستطيع إدراك أى مغزى غير ذلك، كان مزعجا جدا ألا يكون بينكما حوار، من أى نوع، ولو حتّى عن مواضيع مُكرّرة ومملة، كنت حُرا على آية حال، توجه أسئلتك لأبيك كيفما تريد، فأنت تعلم بأنّه لن يسمعك أبدا. صحت فى الرجل الذى أصبح عليك أن تصاحبه فى رحلة طويلة قادمة:

كيف يمكننى أن أشعر بك يا أبى؟

سألتَ نفسك، ضغط الكف الممسكة بكفّك ضغطة خفيفة حانية، وقبل أن تلتفت توقّف الضغط وعادت الأصابع لسيرتها الأولى، استسلمت للإحساس التقليدى الذى ينتاب أى ابن يلتقى أباه بعد غياب طويل، أما الانطباعات الجديدة فقد نحيتها جانبا، كنت تشعر على آية حال بأنك حصلت على غنيمة، فأنت تمشى مع أبيك. وهل يصدّق ذلك أبدا؟

تفتح الباب لآمالك كى تنمو ذاتيّا، سيكون لك فى رحلتك أب، أب فاقد الرأس نعم، ولكن لابد لأى شخص أن يكون أبوه ناقصا أى شىء، لماذا تتخيّل دائما بأنّك لابد أن تحيا مع أب مثالى؟

لطالما تخيّلت أن أباك يعيش فى مخاطرة صعبة، وعليك أن تقوم بدور المنقذ الذى سيُخلّصه من آلامه عن طريق مغامرة تتسم بالذكاء والحنكة، كان دماغك مدججا بالتحليلات العميقة، والبريئة، وكان هناك مد تساؤلى يتوغّل فى مخّاك بطريقة يصعب عليك متابعته، أو حتى وصفه، ولكن وجود جسد ينتمى إليك كان شيئا ممتعا على آية حال، ممتعا جدا.

(2)

أثارتْ الحمير خارج البوّابة الخشبيّة زوبعة من الغبار، كانت الدواب تمشى متقاطرة ومندفعة بسبب انحدار الأرض، لفظتنا البوّابة إلى الخارج بسرعة، كِنتُ حريصا وأنا أحافظ على توازنى، ورأس أبى يتدحرج فى حِجرى، حلّقتْ أمامى نفس الطيور التى كانت تحوم حول العنبر فى المستشفى، طيور لا يوجد فوق جلدها ريش، لها فقط أطراف أماميّة صغيرة، تتحوّر على شكل أجنحة تطير لارتفاعات محدودة، تقترب منّى فتظهر عظامها المجوّفة، وبطنها به ثنيات مترهّلة كالكرش، تلتقط بقايا ثمار جافة ومنثورة على الأرض، ثم مرّة أخرى تطير

أخرجتُ صورة أمّى من جيبى، أخرجتها من جيبى، تأملتها، كانت مبتلّة من أثر العرق وحوافها مثنيّة، صورة صغيرة وجدتها تحت مرتبة جدّتى، ولأنّها صورة وحيدة فقد اكتسبت مهابة بشريّة لا ينقصها إلاّ تدفّق الدم، واكتست بعروق وأوردة تنبض بالحياة.

صُبغتْ الأرض بلون الغروب، بساط ذهبى ناعس وقابض، وحوافر الحمار تحرث أتربة مستمرة تطير فى وجهى، كنّا أول الطابور، تتبعنا حمير أخرى تحمل المُفرج عنهم، كان أحدهم يمتطى جملا ويمشى

خلفنا، وفوق سنم الجمل متعلقات كثيرة فى حجم هودج، يمشى الجمل ببطء ولكنّه يكاد يحاذينا.

عند ابتعادنا عن سلسلة البوّابات التى لا تنتهى ظهرتْ المدينة من بعيد وكأنّى لا أعرفها، استحالت لمكان آخر، مكان لا يشق بسهولة مجرى فى الذاكرة، الأرض الخضراء تحوّلت إلى تلال طينيّة جافة تبزغ من بين شقوقها حرائق صغيرة وأدخنة كأعقاب سجائر كثيرة مشتعلة ومرشوقة فى الأرض. وللمرّة الأولى ظهر أمامنا أطفال، كانوا يقفزون حول الدواب، وفى كل الاتجاهات يلعبون، ولأول مرّة أيضا، أرى أبى يبتسم، لم يفعلها منذ عرفته. لم أكن مُدربا على قيادة الحمير، كان همّى الأكبر هو التوازن فوق ظهر الحمار للحفاظ على الرأس، رأس أبى.

نفس الطيور الغريبة كانت تنفض أجنحتها القصيرة بالقرب من رأسى، فينتج ذلك ماء مخلوطا بفضلات، سائل له رائحة عطنة خمرانة وملمس زيتى مقزز.

تأملتُ المدينة الخامدة، لم يكن فيها دليل واضح على وجود حياة، كانت الأحجار كثيرة والأتربة تملأ الشوارع، ولون الحقول الأخضر استحال لصفرة قابضة، يغلب عليها لون برتقالى فاقع، وتميل طوال الوقت للون الأحمر، وأعشاب كثيرة وغريبة فى الأرض نَمَتْ، تشعّبتْ شواشيها المغبّرة حتى طالت أبواب البيوت وكادت تدفنها بين شِعابها، حتى البيوت شعرتُ بأنّها قليلة ومتناثرة، كبقايا جثث فى جيش مدحور، وشقوق الجدران، ينام فيها الثعبان مستريحا وغاطسا فى أمان.

بعد مسيرة رُبع يوم بالحمار هُيئ لى بأنّى فى منطقة لا أعرفها، أو أعرف بعضها، قابلنى أحد المارة فاستوقفته، وسألته:

- يا أخينا. هل تعرف بيت جدّتى؟

كان الرجل يحمل فوق كتفه فأسا، كان حافى القدمين ويلبس هدوما بالية، قال والبؤس بادٍ على ملامحه:

- جدتك! هل لا تزال لك جدّة على قيد الحياة؟ أنت محظوظ.

جذبتُ الحبل الوضيع الذى وجدته فجأة فى يدى فتوقف الحمار عن المسير، تأملتُ الرجل أكثر وسألته:

- لماذا أنا محظوظ. هه. لماذا؟

- لأن لك جدة على قيد الحياة. فأكثر ما نتمنّاه الآن أن نظل نحن على قيد الحياة. ولتذهب جميع الجدات حدف إلى جنّاتهن التى بها يوعدن.

- هل حدث شيء جديد فى الأسبوعين الماضيين؟

- حصلتْ أشياء تُشيّب الأقرع.

-

- الحرّاس المنتشرون فى كل شبر جعلونا نتمنّى نزول الشيطان إلى الأرض بأقصى سرعة ممكنة.

- لماذا؟

وعدونا بأنهم سيُشرفون علينا يحكموننا يعنى. وسيحملون إلينا الطير بعد ذلك.

– وهل حملوه؟

– مات الطير قبل أن يفوا بوعودهم.

أخذ الرجل يدق فأسه على الأرض بقسوة كَلّ منها ذراعاه وهدا، وعند اقتراب الجمل المُحمّل فوق سنمه متعلقات كثيرة، قال الرجل بعد أن أخذ فأسه يحرث الأرض بتلقائيّة وهو يصيح فىّ بصوت عال:

– أنا لم أقل لك شيئا. هه. لم أقل لك. أفهمت؟

نخستُ جنب الحمار بكاحلى لتحرّك للأمام بمحاذاة الجمل، نظرت خلفى فرأيت الرجل الغاضب وقد عاد يحرث الأرض كأى فلاح مخلص.

كان المشهد من حولى يتميّز بعشوائيّة، بعيدا عن أى جَمال، وكان الغوص فى ما أرى والاندماج فى تفاصيله يعنى بالنسبة لى موتا بشكل ما، وبما أن الموت آت آت فلم أتعجّله، لقد حاولت فعل العكس، بنيت قصورا افتراضيّة لى خيالى تعتمد على أفضل المشاهدات التى مرّت بى، كلما ضاقت نفسى تمنيت أن تكون أمّى على قيد الحياة، ستكون الدنيا وقتها خالية من الألم، أو على الأقل ألمها يُحتمل. كان مجرّد تذكّرها يضفى خيالات جميلة تسحّب على كل ما أرى من مناظر وأشخاص. للحظات، انسحبتُ من المشهد بكل ما فيه، وهُيئ

لى بأن أمّى بُعثت فى ثوبها الأسود المعتاد، رأيتها وهى تقول لى جُملتها الأخيرة:

- اذهب إلى أبيك ووده. الآن لم يعد له غيرك.

لماذا تعلقت جُملتها الأخيرة وأصبحتْ هى كل ما أتذكّرة؟ كرماد تبقّى من حرق متديّن آسيوى، هل يمكن أن تكون امى قد أعطتنى عنوان أبى خطأ؟ والرأس الراقد فى حِجرى الآن، هل من الممكن أن يكون لشخص آخر غير أبى؟

توقفتُ، فتوقفتْ قاطرة الحمير من خلفى، أشار لنا أحد الحرّاس أمام طريق يتم تمهيده، طريق موازٍ لما نسير عليه، أشار الرجل صاحب الفأس بيده إلى الطريق الجديد فتوقفتُ لبرهة وسألته:

- يا أخينا. أين المبانى الملونة والنساء؟

فتوقّف عن الحرث، رفع رأسه فوق كتفه مرّة أخرى وقال:

- أنت منهم إذن.

- مِمَن؟

- الباحثون عن الزخرف.

- زخرف!

هشّ الرجل على ظهر الحمار وشدّ ذيله فقمّص وحرن، أمكننى الحفاظ على رأس أبى فى حِجرى بأعجوبة، أمّا الطريق الممهد فلم يمر منه سوى الجمل الذى يحمل فوق سنمه متعلقات فى حجم هودج،

نظر الجمل النظيف باستعلاء لحمارنا الساذج المتواضع والرغاء يفور من بين شفتيه المتهدلتين.

* * *

كان مكان العنق المجذوذ يحتاج لضمادات، فقد سخن فجأة وأصبح عليك التصرّف بسرعة، تحسس أبوك بيده الأخرى مكان الانفصال، ثم رفع أصابعه كمن يعاين قرصة ناموسة، من ماء السُبل غرفت مقدار كوب ورميته فوق عنقه، سمعت له فورة وصوت حطب محروق يطقطق، أصبح بعد ذلك أهدأ وأحسن حالا.

كان الجسد العفي يسحبك فى أى اتجاه يريد، بدأتَ تكتشف مزايا عديدة لصمت أبيك، كنت تروى له ما تيسّر من قصص لا تزال تتذكّرها بعد كل هذه المرمطة، عن جدتك حدثته، وعن مرض أمك، وعن المصحة التى تركتما فيها جدتك، لم يكن بمقدوره تصحيح مسار حكاياتك، حتى لو أراد ذلك.

سِرت مع أبيك ولم يكن بالقرب منكما أحد. جذبك فى اتجاه شارع فرعى أرضه غير مسفلتة، انحدرتما فيه باندفاع الجاذبية، بعد أن اجتزتما نصف الشارع تقريبا تلقّى أبوك التحيات من الناس باسمه الحقيقى:

"كيفك يا عم سعيد"

"كل سنة وانت طيب يا عم سعيد"

عرفوه من دون رأس أو ملامح، هل لأنه يسير معك. كيف وهم لا يعرفونك أصلا؟

كان الهواء الذى يلفحك منعشا لدرجة شعرت معها بأنك تستمع لأغنيات قديمة متمهلة الموسيقى، رائقة الكلمات، رقيقتها، وكان أبوك يسير بجوارك كنسخة جديدة بديلا عن نسخته التى طالما تخيّلتها فى الماضى.

توقّف أبوك أمام باب دكّان، تجلس أمامه امرأة تبيع كسكسى فى مواعين كثيرة، أزاحها بيده ونحّى مواعينها بعيدا، ثم وقف ساكنا، لا هامة له يرفعها أو يَحنيها لتعرف مقصده، ولا رأس يهزّها لتخمّن ما يريد أن ينهاك عنه. كان فوق رأس باب الدكان لافتة مغبّرة صنع عليها العنكبوت لِوحا متشابكة ومعقدة، لّما تأملت الحروف المكتوبة فوقها رأيتها بدقة "أز.. أزياء.. الشر.. الشرق" ومن تحتها عنوان فرعى أوضح قليلا "للأناقة أسلوب" وفور أن وقعت عينك على اللافتة ضخ فيك تاريخك المنفلت دفقات قويّة محمّلة بشخصيّات وأحداث، قبل أن يُفتح باب الدكّان عرفت مكان بنك القص ودرج المازورة وبرطمان الكستبان وألوان الخيوط. هُيئ لك بأنك رأيتَ رجلا عجوزا كان يأتى لتصليح المكن، له أنف كبير يمكنه وحده حمل نظارة بسلسلة كانت تحز فى قفاه، يجرش حبّة نعناع بشكل دائم، ويحاول طوال الوقت البحث عن ثُقب الإبرة. ورأيت كذلك المحل الصغير، أزياء الشرق، وهو مليء بالزبائن ليلة

العيد، تحديدا، وقت ظهور الرؤية، مفتى الديار يذّنب الناس ساعتين ليقول لهم غدا المتمم أو اليوم، والزبائن يحملقون فى التليفزيون ويهللون فى جميع الحالات. وأبوك يجلس كملك يتحكم بكلمة فى رعيّته، يتر العرق من كل ما بان منه، كل نصف ساعة يخرج من تحت يده بنطلون، يقذف به إليك لتفتّح خياطاته من الداخل وتكويه، ثم تحضّر له واحدا آخر، تلصق له فزلين الكمر وتجهّز له كبشة، وسوستة من نفس لون القماش، طلباته كلها كانت مجابة، وبرغم ذلك يشخط فيك وينطر، وبعد أن يخف وطء الأقدام الوافدة للمحل يربت على كتفك ويعتذر بلطف عن كل ما هز كرامتك أمام زبائنه المتعجلين دائما.

لطالما شعرت وأنت خلف هذا الباب المغبّر بأحاسيس متضاربة، بين عِزّة مفترضة يطلبها أبوك ومعاملة مهينة تصل حد المرمطة أحيانا.

كيف هُيئت لك هذه الحوادث وأنت لم تر أباك من قبل؟ أنت لم تكن يوما خلف هذا الباب، ولم تعمل بمهنة الترزى ولو لدقيقة واحدة.

(3)

تخشّب عمودى الفقرى من الجلسة، كل هذه المسافة وأنا فوق ظهر الحمار؟ كنتُ طوال الطريق حريصا على توازن رأس أبي فى حِجرى، قطرات العرق النازز من كوعى وذقنى كانت تصنع ثقوبا صغيرة فى الرمال، ارتطامها أكاد أسمعه، ثقلت جفون الدواب وتخدّرت أبدانها، فركّناها تحت أشجار صفراء كانت فى طريقنا، بجوارها نباتات جافة على شكل هيش، انكمشت الحمير على نفسها وكأنّها نائمة، لحق بنا فى الراحة باقى القطيع، تكوّم المرهقون من طول المشوار، كنّا نتلاحق ونرمى ظهورنا ونسندها على جذوع الأشجار، والشمس تعكس ضوءها فى أعيننا. رفعتُ أبي من حِجرى ووضعته بجوارى، مسحتُ فمه بالبفتة المُعلّقة فى ما تبقى من عنقه، من كثرة مسحى لفمه أصبحتْ البفتة خفيفة النسيج كالنسالة، اصفرّ لونها الأبيض. وجعل العرق ملابسى كالمغسولة ويمكن عصرها.

نظر إلىّ أبي، انتهك ما بداخل دماغى من ترتيبات، وقبل أن أتمعّن فى نظرته وأحاول تفسيرها حدث هرج محدود فى صفوف المضطجعين، سرعان ما تحوّل لحركة ونظرات فى اتجاه واحد، عندما تتبعتُ نفس الاتجاه رأيت الهودج، أو بالأدق، الجمل الذى كان يسير بمحاذاتنا،

ومن فوقه صندوق خشب كبير له نوافذ مُعتمة وخيوط منسدلة كشراشيب رفيعة من كل اتجاه. توقّف الجمل فى مكان صعب، لم يفقد توازنه برغم تمترسه عند بداية منحدر، نزل من الصندوق خمسة رجال أشدّاء، تكاد ملابسهم تُضيء من شدّة البياض، أمّا لحاهم فمصبوغة بلون قشرة الرمّان، وقفوا أمامنا واقترب أحدهم منّى وقال:

– لماذا تجلسون هكذا؟

– نستريح.

– انصرفوا من هنا حالا انصرفوا. فصاحب الجمل يبلغكم ذلك.

بعد أن فرغ من إملاء أوامره انصاع من اضطجعوا حولنا للأوامر كذلك، كانت حركاتهم خفيفة بلا ضجيج، يروحون ويجيئون على دوابهم بنعومة يحومون حولنا كالفراشات، تشممت الحمير ذيول بعضها، ثم وقفت مصطفّة فى طابور معوج تنتظر النخس أو الضرب، هبّتْ علينا ريح مغبّرة لها رائحة زنخة، ثم ازدادت الرائحة وفاحت بالعفن. بعدما اجتزتُ المنحدر وطوارا مهشّما يبدو أنه كان طريقا قديما رأيت المدينة واضحة. بساط من خليط أتربة وغبار بلون المشمش الناضج، يمشى الناس وفى أياديهم تروس مدمجة تشبه عجلات حربيّة صغيرة، يجرون فى كل اتجاه، وكأنّهم يستعدّون لحرب، اقترب منّى أحدهم وفى يده آلته العجيبة وقال:

– خذ. هذه لك؟

خُفتُ من جهامته فأخذتها مضطرًا. وزّعوا على كل من يسير فى السرب آلات مشابهة، ولمّا سألتُ الرجل المتسرع عن جدوى هذ الشيء الذى كان مِلكه وأصبح بقدرة قادر فى يدى، فقال وعينه تلمع بنشوة غريبة:

– ألست من مؤيدى الحرّاس.

– نعم.

ثم أشار لباقى الطابور من خلفى وقال:

– وهؤلاء؟

– نعم. مثلنا أيضا. ولكن هل هذه التى فى أيدينا أسلحة؟

– إنها أسلحة خاصة بالمؤيدين فقط. وزّعها صاحب الجمل.

كان يكفينى التمسّح فى اسم الحرّاس، فللكلمة وقع السحر على مسامع الرجل، ما أن نطقتُ بها حتى انفتحت كل الطاقات أمامى، تركونا نمر ببركات صاحب الجمل، من يكون صاحب الجمل هذا؟

أصبحتُ وجها لوجه مع مدينتى التى أذكر، اجتزتُ الرجل وقافلته، رأيت شارعا أظن أن له بقايا ذكرى فى دماغى، هُنا كنتُ ألعب، لا، هُنا، كانت الذكرى مُشوّشة، كأنى تركتُ مدينتى منذ ألف عام، ارتبكتْ الحسابات الزمنيّة، على مدد الشوف رأيتُ أجساما هُيئ لى أنّها لحيوانات الحقول، كانت نافقة ومتوزعة على المكان بعدل، كل بضع خطوات جثّة جلدها مقشّر وبدنها منتفخ، متباعدة

الأرجل ومتصلّبة. كنتُ فى قلب الحدث أفكّر بشكل مختلف، فنحن نتخيّل المأساة قبل حدوثها بأشكال مختلفة، أمّا المأساة نفسها فشىء آخر.

أمسكتُ رأس أبي بيد، وبالأخرى وازنتُ الآلة الحربيّة الصغيرة على مؤخّرة الحمار المسكين، من خلفنا كان يسير الرجل الذى أعطانا الآلات العجيبة، ربما ليقيس مدى ولائنا للحرّاس من خلال تصرفاتنا وتحركاتنا، كان يمشى بجواره رجل حافٍ لا ينتعل شيئا، يحمل إبريقا به ماء، قال للرجل الذى كان يبدو قائده بشكل ما:

- المغرب. المغرب.

ورد عليه الآخر:

- فلنتوضأ.

شمّر الرجل وتوضأ أثناء المشى، كنتُ قريبا منه لدرجة أننى سمعتُ صوت حبّات المياه فوق الرمال الساخنة، تابعته بشىء من المتعة وهو يهرول، والمياه تترجرج فى كفّيه قبل أن يلطم بها صدغيه فى حركة متسرّعة لا تلمس فيها المياه وجهه تقريبا.

رفعتُ عينى من على الأرض، فرأيت عند المسافة التى تحجب السماء من الانطباق على الأرض قبعة من دخان، لم أر بسببها قرص الشمس فى غروبه المعتاد.

تمتم الرجل بما يشبه الأدعية، كلمات تتفتّت معانيها على باب المقاصد، سمعته والحمار يسير ببطء، ورأس أبي كادت الشمس أن

تشويه، ورأيتنى وحمارى ورأس أبى كما لو أن طفلا قصّنا من المشهد وهو يلعب، خرجنا من الصورة وأصبحتُ أرى ما يحدث من حولى وكأنّه لا يخصّنى، ولا يهمنى، الآن، أصبحتُ على قناعة تامة بأن مقاصدى ليست بالضرورة هي نفسها مقاصد العالم، أصبح لكل منا شأنه يديره منفردا، لم يعد الكون يرقد فى تصوراتى عنه كما كنتُ أظن.

هُيئ لى بأنّى أرقد فى قرطاس من رصاص، معتم وسطحه أملس، مسحوب القعر عريض الفوّهة، أجاهد فى الخروج منه ولا أستطيع، ولا يميل هو بفعل الجاذبيّة فيدلقنى لأرى النور بالخارج. أحسستُ بدماغي ملقفا لمطحنة من احتمالات لا يربطها شيء، كأن فخا ما لم يزل فى طور التشكّل ينتظرنى فى مكان مجهول. عدتُ بذاكرتى للخلف، استعدتُ نقطة لم تتعد الثانية الأخيرة، بالضبط منذ ورود كلمة "الثانية الأخيرة" ثم انطلقتُ سارحا حتّى بداية الوعى، مهمتى الآن كقصاص الأثر، أتتبّع خطوات أعرف بدايتها ولا أرى لها نهاية، أكبر ما أخشاه هو أن أنسى كل شيء، بما فى ذلك ذاكرتى نفسها، كانت الأيّام تتشابه لدرجة التطابق، حتى أنّى كنت أتعجب من أن أظافرى وشعرى يطولان. وهُيئ لى بأن جهة ما تحقق معى، لم أتأكد من ذلك بشكل نهائى، ولكن شخصا ما مر بى وسألنى:

– ما اسمك

وأجبت:

اسمى عمر سعيد إبراهيم. شخص ذهب لمكان ما، أعتقد مستشفى، نعم مستشفى، ليزور أباه، ولم يجده، ولم يستطع الخروج من

المستشفى. أنا عمر سعيد إبراهيم، أمى ماتت دون مبالغة فى إظهار عواطفها، وجدتى، لا أعرف مصيرها بشكل مؤكد، وفى يدى رواية غير مكتملة، بين الحين والآخر تلكزنى شخصيّات معيّنة لأقوم بكتابتها، تُصحينى من النوم، لا أتذكّر منهم الآن إلاّ اسمين فقط، فايز وحسن. هل قابلتهما فعلا، أم أيقظانى لأضمّهما لمتن روايتى؟ فقبل الكتابة تكون الذاكرة كقماشة بيضاء، لا نقوشات فيها ولا أحداث، تتخلّق الأحداث وتسعى إلىّ الشخصيّات عندما أعقد العزم على التذكّر، وذاكرتى كانت تخوننى كثيرا، وتنبهنى لوجودها كثيرا، لكنّى فى الحالتين كنتُ أعجز عن الإمساك بها، فالإنسان يأتى للحياة بذاكرة سادة محمولا، ويتركها بذاكرة سادة محمولا أيضا، يترك النقوش والألوان على عتبة المغادرة، ولذا، فقد قررت ألاّ أتركها بالكامل، قررتُ أن أكتب رواية، كانت الأفكار تراودنى، فأتذكّر، ولا أستطيع الفصل التام بين ما أعيشه بالفعل وبين ما يُهيئ لى بأننى عشته.

قبل أن تتغيّر المدينة كنتُ أحب جمع أصداف البحر والرسم عليها، نعم، أتذكّر ذلك جيدا، كنتُ أحب الرسم على الأصداف، أسمع الآن وشوشتها، أسمعها وهى تفور بالكلمات:

"الجثّة يأكلها الدود.. الجثّة يأكلها الـــــ...

* * *

فقد أبوك حواسه الأربع دفعة واحدة، وبدا اهتمامك به كأى اختيار ذاتى تفعله بإرادة كاملة. كانت حركات طائشة ولا تعرف لها معنى، تشعر فيها بشىء من الارتجال. تحاول الابتعاد قدر استطاعتك عن مطاردة الأفكار الشاردة حتّى لا توقعك فى أسرها،

ترى حياتك بأكملها عبارة عن فتلة ملضومة فى إبرة، أنجزت بها أعمالا لا تتذكّرها، وأصبح كل همّك أن تعقد الفتلة مرّة أخرى لتمارس بعض الإنجازات المتبقّية، الآن، وبوثبة واحدة يمكنك التوفيق فى مهمتك، فوضى ساحرة يجتاحك مذاقها وتحاول تمثلها، تصادمتْ النقائض فى إعادة اكتشافك لنفسك.

وتروح فى غفوة مسكّرة، ترى بعدها جسد أبيك هُلاما ينبت من لون باهت، وميض ظل يوخذك وكنت على وشك الانصياع له، تماما كأنّك فى فترة قيلولة وستعاود نشاطك قريبا.

ولّى أبوك وجهته فى آخر الشارع، كانت تقف هناك جميزة عجوز ووحيدة فوقها تتململ الطيور، كانت وقفته الثابتة توحى وكأنه يرى، بعد الوقوف لمدّة طويلة تحسس أبوك ثقبا فى كالون باب الدكّان، ثم انتشى باقى جسده وتمطّع عندما تخلل الهواء مسامه، انتحتْ بائعة الكسكسى جانبا ولكنّها ظلّت تقلّب بضاعتها بمقصوصة ألومنيوم مقطوشة اليد وملفوف عليها شريط من قماش.

سِرتَ مع أبيك وأنت لا تعرف مصيرا محددا لما سيؤول إليه حالكما، فى نهاية الشارع، دست فوق تضاريس لها فى نفسك ذكرى غامضة، وأبوك بجوارك واقف، بدون رأس، كشىء نما فى موطن غير أصلى، أو كطائرة تستعد لأن تكون دبابة. طالما تخيّلت له جبهة من فولاذ ووجنتين من ذهب وعين قويّة من فضة، ولكن كل ذلك تناقض مع الجسد السائر بجوارك كجوال مُعبأ بالبطاطس. وسألت نفسك، هل هذا البدن هو نفسه الذى فازتْ أمك بابن منه ذات ليلة؟

(4)

وسط هذا الخراب، وبينما رأس أبي فى حجرى توقف بنا الحمار، أنزلنا الرجل الذى كان يتوضأ أثناء دخولنا للمدينة، حرصتُ على الرأس، احتضنتها وضممتها إلى صدرى لكى لا تنفلت وتتدحرج، أمسكنى الرجل من يدى وطاف بى، خطونا فوق تلال من الأتربة لها لون الدخان ورائحة الحرائق، عبرنا حجارة صغيرة، وأكوام طوب كفوائض هدم البنايات، والبيوت التى تركتها تناطح السحاب تقزّمتْ وصارت من دورين على الأكثر، كأنّى فى قرية شُيّدتْ منذ مئة عام، وسألتُ الرجل الذى كان حريصا على الإمساك بى:

– هل هذه هى المدينة؟

– نعم. ولكن بعد استرداد الحقوق وإرجاعها إلى أصحابها.

حاولت إعادة كلماته إلى مادتها الأوليّة، ما هى الحقوق ومن هم أصحابها؟ كانت الصور التى تتجسّد أمامى كلها آتية من الماضى البعيد، قبل أن تتشكّل لى عينان، ولسان وشفتان، هُيئ لى بأن أمّى هى أول من سكن ذاكرتى أثناء التخلّق الأوّلى، ربما بسبب حكاياتها عن صعوبة إنجابى، أو بتدقيق أكثر تأخر ولادتى لخمس سنوات كاملة، فبعد زواجها من أبى بسنتين، لم تظهر عليها أعراض الحمل، لم تلفظ ما

فى جوفها ولم يقب بطنها أو تعانى من أى دُوار. اقترحتْ جدّتى على العروسين إعادة مراسم الزواج فى نطاق محدود، لبستْ أمى الفستان الأبيض المعمول من الساتان والشيفون، ولبس أبى البدلة الاسموكن السوداء للمرّة الثانية، زفتهما فرقة الدفافين ودوى بجوار البيت طبل النقرزان، ولكن ذلك لم يُجد، ولم يكن له أثر من نفع، ففكّرت جدتى فى اقتراح آخر،صنعتْ دُميتين خشبيتين بنفسها، ثم كستهما بملابس فاضت عن تنجيد وسادة، زوقتْهما بالكرانيش وشرائط الدانتيلا، بعد ذلك طلبتْ من أبى عدم دخول غرفة النوم إلا بصحبة أمّى، وسبقتهما جدتى، وضعتْ الدميتين بجوار الوسادتين بشكل فيه زوق وجمال، ثبتتْ العروسة على وسادة أبى والعريس الخشبى على وسادة أمّى، وقبل دخول العروسين الحديثين للغرفة كانت جدتى تطلب من أبى أن يرتدى ملابسه الداخليّة بالمقلوب، ويضع على صُرته قرصا من الرصاص فى حجم عُملة، وطلبتْ فى المقابل أمى أن تربط أمّى تحت قميصها جزءا صغيرا من شِباك صيد مستعملة، وبعد ليال سبع صنعتْ جدتى عروسا ورقيّة وثقبتها مرارا بنسة شعر، ثم ربطت أحجبة كثيرة استهلكت كراس، وأشعلتْ فى البخور النار ليُتوّج كل مجهوداها وتعم الفائدة، وبرغم ذلك باءت كل المحاولات بالفشل. أمّا فى عام النضوب الثالث فكل الأشياء التى فعلتْها أمّى من أجل مجيئى كانت مقززة، تحممتْ بماء غُسل ميّت، ورموا فوقها ديوكا مذبوحة بلا رؤوس، كانت تتخبط بدمها الساخن فوق جسد أمّى العارى، مرتْ المحاولات المضنية بأفعال لا علاقة لها بالإنجاب، كالكى ورصّ كئوس

الحجامة، ووضع مفتاح أحد الأضرحة فوق ظهر أمي، وبطنها متكئ على قطعة كبدة نيئة، والتبرّك بحمل مولود قبل بلوغه يومه السابع. بعدما أصابهم اليأس ترك ثلاثتهم المسألة برمّتها، جدتى وأمّى وأبى. مرّت خمس سنوات تحوّلت فيها الحياة إلى مخزن للكآبة المستديمة، وعندما خلت أدمغتهم من الموضوع نهائيًا جاء الفرج من حيث لم يحتسبوا، تعلّقتُ لسبب مبهم فى أحشائها، أنا، أنا وحدى دون غيرى، وحتى بعد حمل أمّى كان لجدّتى دور لا يقل أهميّة عنه فى مرحلة النضوب، كانت تنهر أبى لو أيقظ زوجته الحامل، فذلك سيعيق تشكّلى فى تخلّقه الأوّلى. وبعد ولادتى لم يخل البيت من تحذيرات جدّتى أيضا، فقبل أن يفركوا رأسى بالشبّة ويسقونى الماء بالسُكّر قالت جدّتى لأبى:

– لا تدخل عليها وأنت حالق ذقنك.

– حاضر.

– ضع بجوار رأس المولود مقصا لكى لا تقترن روحه بأخيه فى طبقات الأرض البعيدة.

– حاضر.

أحسستُ بأن انفصالى عن رحم أمّى لم يحدث يوما، لم أعبر تلك المرحلة بعد، أو على الأقل لم أعبر طقوسها.

كان مجرد حفظ توازنى يحتاج لمجهود كبير، الرجل الذى توضأ منذ قليل سحبنى من يدى برفق، خطونا على الأنقاض، أخذ يُعلّمنى كيف

يمكنني تفادى الجثث الملقاة فى طريقنا، وكيف يمكنني دفن من لم يسعفهم الحظ ليؤمنوا بالحرّاس. مكّنني الرجل أيضا من هضم معارف جديدة، كيف تتحمّل الجثث ضغط الهواء وسقوط المطر، تُركوا عُرضة لعوامل الجو ونهش الضوارى. وبعد أن كنت منشغلا بأصداق التى أرسم عليها. أصبح مطلوبا منّى فجأة أن أتعلّم كيف تُوارى الجثث.

طار غبار محمّل بروائح الجيف، اختلط ريش الطيور المتشرّدة بالأبدان المنتفخة، وأصبح علىّ التدقيق عند وضع قدمى على الأرض، فعلى عمق شبر واحد مفروش بساط من الأبدان الهامدة، يهزّها العيال الذين يقفزون بلا نهاية، وتهرسها حيوانات ثقيلة بحوافر تهتز لها الأرض، وبدلا من أن يعلّمونى كيف يمكننى أن أعيش علّمونى كيف أتعامل مع الأموات. ركضت حتّى استوقفتنى، رأيتها ممدّدة على الأرض، نعم هى، بدون غطاء يستر جسدها النحيل، كان جزءا من قدميها مطمورا تحت الأنقاض، وتنورتها بالتخاريم المشغولة محسورة حتّى ركبتيها، محدّقة فى السماء، تحديقتها مخيفة، فى نظرتها نفس الحدّة والجنون، نعم هى، بلحمها وشحمها، ولكن بلا حِراك، ولا روح، شعرها هائش كشوشة ذرة تهزّها ريح، نعم تأكدتُ بأنّها هى نفسها، جدّتى.

* * *

هل يستحق تذكّر ما فعله أبوك فى الماضى كل هذا العناء؟ إذا كنت الآن تود نسيان الحالة التى تعيشها، فكيف تتحمّل تفسيرات

لأحداث عشتها وراحت لحالها؟ لو فكّرت فيما فعله أبوك بالأمس فلن تفكّر فيما يفعله الآن، حسبة مفروضة سلفا.

عندما وصل أبوك إلى آخر الشارع توقف طويلا، وعندما وصلت قرب نهاية الشارع لتلحق به رأيتَ أمامك مدينتك الصغيرة، البعيدة، هى المدينة نفسها، مطلّية بكركم الغروب، أنت الآن بجوار أبيك، كتفا بكتف، لم تشعر معه بتلك الأحاسيس التى كانت تجتاحك فى حضرة أمك، عندما كنت تتدثّر معها بكليم صوف، تلاحظ انتظام أنفاسها عندما يثقل لسانها ويتوقّف عن ذِكر الحكايات، تغفو ولا تشعر بعد ذلك إلاّ بيدها وهى تمتد بكوب حليب فى دفء دمعة العين.

لعبتْ الريح بالزروع القليلة من حولكما، وطارت عصافير كثيرة من فوق شجرة كافور على مدد الشوف، وأبوك يقف ثابتا، قدماه مدسوستان فى حذاء أحمر، صنعت له العصافير رأسا مستعارا، هذا الرأس بالذات يجعلك تصرخ، تستغيث، فهو صغير ويشبه رأس جدتك، له نفس الاستدارة والهيئة، لم يعد بوسعك التنقيب عن الأحزان، فجدتك لم تكن تتورّع عن سبّك، حتى فى أحلك الظروف، فعندما أغلقوا القبر على أمّك بالرمل المبلل بالماء والجبس، وبينما يثرثر رجل بشوش بكلام مُعاد حد الإملال، وقفتْ جدتك مشدودة الصدر، وكأن من ألقوا بها فى الحفرة منذ قليل لا تمت لها بصلة، عينها باردة وغير معنيّة بما يحدث، ولا يشغلها حزن من

حولها، وقفتَ بجوارها وأنت تحاول حثها على تمثيل الحزن أمام الناس فدفعتك بيديها النحيفتين وقالت:

أمك كانت أحن منك عليّ. وكنت أحبها أكثر منك. أما الآن فهى لم تعد سوى شيء، شيء ميّت لا يمكنه نقر حفنة رمل مبللة والخروج من فتحة صغيرة تعلو عنها بمقدار شبر واحد.

برغم قسوة كلامها فإنّها كانت تبدو ضعيفة جدا، سنتها الوحيدة تنقر لثتها ببطء، يداها ترتعشان، قدماها لا تحتملان الوقفة أكثر من ذلك، اقتربت منها، حاولت لمس كتفها الضامر، كنت تريد أن تحيطها بالسعادة وبالأحزان فى وقت واحد.

(5)

انحسرتْ مساحة الحنّية وصِلة الرحم عندما رأيتُ أحد الحرّاس يقترب منّى، تركتُ جدّتى الميّتة وقفزتُ بعدها عشرات الخطوات، كل ما كان يشغلنى هو كيف أنجو بما أحمل، تجلّت أغراض الرجل فى محاولة خطف أبى، لن أتركه لهم مهما حدث، تبعتْنى نفس الطيور الغريبة ضاربة أجنحتها بالقرب من رأسى، وتبعنا حرّاس آخرون، يسعون للقبض علىّ، يركضون ورائى كما يُطارَد النشّالون، لم أعد أعرف لماذا أجرى، ومن هم أعدائى الحقيقيون؟ فقدتُ أمّى منذ أسبوعين، وفقدتُ أبى قبل أن يتشكّل وعيى، وها هى جدّتى تركتُها وجبة للطيور الجارحة والحيوانات البرّية الشاردة. لم أعد أشعر بشىء من حولى، أصبحتُ أملك رأسا فقط، رأسا يتشبّث بدفء بملابسى، لا يريد أن يتركنى، ولا أريد أن أتنازل عن شعرة منه، لم أعد أعرف إلا هذا الرأس، مهما حاولوا إقناعى بألا فائدة منه. كنتُ أركض كالمجنون، والناس من خلفى يركضون، يمدّون أظافرهم تجاهى ككلاليب، جلافتهم المتوحّشة تتجلّى فى مطاردتهم العشوائيّة، داسوا على كل الجثث التى قابلتْهم، غاصت نعالهم الغليظة فى الأحشاء المكشوفة، أصبح هدفهم بالنسبة لى واضحا بشكل كبير.

تجمّعتْ المشاهد الصغيرة من حولى وصنعتْ مشهدا واحدا كبيرا، كنتُ أجرى خائفا من أن يُعلّقنى هلب أحدهم، يبدو أن الرأس أصبح هو مطلبهم الوحيد، تجمّعت أهدافهم كلها فى كيفيّة انتزاعه منّى، حاولتُ أن أستعرض الوقائع كما مرّت أمامى منذ أسبوعين وفشلتُ، كنتُ أَشبه بشخص معصوب العينين، لا أعرف كيف دخلتُ، ولا من أى منفذ خرجتُ؟ أى مكان لفظنى فصرتُ على ما أنا عليه الآن؟ أشعر برأسى يطن بأزيز ذباب بلا عدد، هل سيعقدون مجلسا ليحكموا فى النهاية بانتزاع الرأس منّى؟ أفكّر فى كل ذلك وأنا أركض، نجحتُ أخيرا فى الابتعاد عنهم بمسافة معقولة، اقتربتُ من الإفلات، لولا تعثّرى فى الجثث الملقاة بلا عدد، روائح النتن تُسدِل غيامة قويّة على تركيزى، كانت الأرض تهتز من تحت قدمىّ، والبنايات والزروع تنتفض من أقل حركة، وهذا ما حدث لى تقريبا، رأيتُ الدنيا من حولى تهرب معى حفاظا على الرأس، وشعرتُ بأن خطواتى لم تكن واسعة بشكل كافٍ، وبرغم ذلك كنتُ أسبقهم بمسافة لا بأس بها. بعدما تركتُ البقعة المتشبّعة بالجثث وصلت وحيدا لأرض خلاء، لا هى صحراء ولا هى مزرعة، تقف فى منطقة الوسط، بساط رمادى فاتح فيه بضع أشجار مُعمّرة وزرع صغير خاب حصاده فوقع ثماره وجفّ، جلستُ تحت شجرة جذعها سميك، وضعتُ رأس أبى بجوارى، كان قد ضرب تعسيلة محترمة وبالكاد حاول فتح عينه وقال:

– لماذا لم تتركنى لهم وترتاح؟

طرقعتُ ظهرى وفقرات عنقى وقلتُ:

– لأنى بدونك سأفقد كل شيء. تركتُ جدتى بعد موت أمى فماتت هى الأخرى. ولم يبق لى غيرك.

كانت الثمار الجافّة مُرّة ولاذعة، حاولتُ استطعامها لألقم أبى واحدة فألقيتها بسرعة من يدى. تفقدتُ الأجواء من حولى قبل أن يحل الظلام، رأيتُ لافتة كبيرة مُعلّقة على أحد المحال التجاريّة المهجورة، مكتوبا عليها بخط كوفى قديم ومتآكل: "مخصص لشراء جميع أنواع الرءوس كبير وصغير، والعقود سارية حتّى فترة وجيزة. نتعهّد بشراء الرءوس بأسعار ممتازة"

لّما ظننته مسمطا لبيع لحم الرأس واللسان ضحك أبى، كانت هى المرّة الثانية التى يضحك فيها، وقبل أن أشرع فى السؤال قال:

– انظر داخل المحل.

دققتُ النظر بالداخل، رأيتُ لوحة بالزيت مرسوما عليها رأس إنسان محتقن الوجه، كأنّه صُوِّرَ رغما عنه، هل يسلقون رءوس الناس ويسلخونها؟ سألتُ أبى فردّ وقد اختفت ابتسامته بسرعة:

– كل ما تقوله لا علاقة له بالحقيقة.

وقبل أن أردّ انتبهتُ لوجود بيضة داخل المحل المعلقة عليه اللافتة، أخذتُ أبى وذهبت للمكان الذى ترقد فيه البيضة، تخطيتها وملّستُ على الأوانى بالداخل، كانت أوانى نحاسيّة عليها طبقة خضراء غامقة راكمتها أزمنة متعاقبة، ولكن كيف توجد فى هذا المكان المهجور

بيضة؟ هل يمكن أن تكون بيضة لثعبان؟ إن لها استدارة بيض الدجاج العادى الذى كانت أمّى تسلقه كل صباح، وربما أكبر قليلا.

تحسستْ يد غريبة كتفي ثم ربتت عليه بمنتهى الثقة، التفت فوجدتُ رجلا له لحية بيضاء كالقطن، يبتسم ابتسامة لا تُطمئن، ثم قال وهو ينظر لرأس أبى التى طوّقتها بذراعىّ:

– لماذا تعبتَ نفسك يا بنى؟ لماذا جئت بالرأس بنفسك حتّى بابنا. فعندنا المندوبون أكثر من الهم على القلب.

استشعرتُ الخطر على الرأس فضممته بكل قوّة، وربما بكل قسوة إلى صدرى. لم أعد أملك أى قدرة على الركض مجددا، وفى نفس الوقت، لم يكن عندى أيضا أدنى احتمال للتنازل عما فى حوذتى. اختفيتُ من أمامه بقفزتين، خمّنتُ بأن الرجل العجوز لا يمكنه اللحاق بى حتّى وأنا فى هذه الحالة المزرية من الإعياء، اتشبثتُ برأس أبى لدرجة الاستموات، وبعد مسافة ليست قليلة تحت طرف جلباب الرجل صاحب اللحية البيضاء يقترب منّى، لم يكن يبذل مجهودا فى عمليّة الركض، ولكنه كان يشبه الطيور بحركته الناعمة، قدماه لا يرفعهما من على الأرض، ولكنّه يندفع برغم ذلك للأمام، فى اتجاهى، بلا مجهود، قفزت بكل قوتى ككائن بدائى يجوب الغابات، وطرف جلبابه الأبيض يكاد يحف فى قدمى، والرجل يبتسم بشكل مرعب هيّج أعصابى، ثم بطريقة لا أعرف كيف حدثت أصبح فى محاذاتى، يسير بجوارى جنبا إلى جنب، وسألنى:

– إن لم تفعل ما أريد فأنت الخاسر.

–

– انظر إلى هذه.

ورفع بين أصابعه البيضة التى رأيتها فى محلّه، كان مكتوبا على قشرها بخط متعرج كأنّه لطفل "الله" اطمأن قلبى وتوقفت عن الركض، تأملتُ البيضة فى يد العجوز، وأثناء اندماجى فى فك باقى شفرات النقوش أعطانى الرجل إيّاها. وقبل أن تلمسها يدى خطف الرأس منّى وابتلعه الظلام. شعرتُ بالخيبة، تراخت أعصابى وتاه تركيزى، لم أعد أدرى أين أقف، ثقلتْ يدى بالبيضة، هدّنى الإرهاق المتواصل، كانت البيضة ثقيلة أكثر مما يجب، وكأنّها مُعبّأة بالزئبق. رميتها على الأرض بقسوة، لم تنكسر، رفعتها مرّة أخرى ورميتها، فتدحرجتْ بعيدا، ولكنّها أيضا لم تنكسر، تأملتها جيّدا، لم تكن بيضة دجاجة، ولا ثعبان، كانت بيضة من حجر.

* * *

انحرف أبوك، ظل يميل تدريجيّا نحو شارع واسع وقطعة أرض مترزعة فَسرتَ من خلفه، ثم عدوت بأقصى ما عندك من تهوّر، وجدته يميل تجاه شواهد مطليّة بدهان أبيض قديم، مرشوقة وسط قباب وقع بعض آجرها، حجل على كعب واحد ليحصل على المزيد من الانحراف، حاولت إبعاده قدر استطاعتك، ولم يبتعد، حاولت مِرارا، ولم يتوقف عن مقصده الغامض. كان جسده قد تصلّب وظهرت له "مجانص"، كنت تشعر به بشكل ما.

برغم كل شيء لا يمكنك التنازل عن أب وجدته فى طريقك، فتعطّشك لوجوده فى حياتك جعلك ترضى بأول معروض، ولكن بعد اقترابك منه أكثر لم يعطك إلا مزيدا من الظمأ، تحاول جاهدا أن تقول الجُملة كما تتخيلها منقوشة فى ذاكرتك، بعيدا عن دائرة الإدراك الخارجى. لم تشعر بأن أباك له وجود، ولكن كان له مضمون فى مساحة من مخّك لا تحسّها بسهولة، نفس المساحة التى تحتفظ بصورة جدتك عندما كنت طفلا، عندما كانت لها سنّة واحدة وبدن أعجف، ولكن الفرق بين جدتك وأبيك أن الأولى كانت فى زمن سريع تلاشى، أمّا أبوك، فكان ذكرى ثم تجسّد فى كائن تراه أمامك. لم يبق من أثرها إلا إحساسك قبل أن تقابله، إحساس جميل برغم كل شيء، أن تُسبل ما تتخيّله على أشياء واقعيّة تراها بالفعل، أن تخترع الحياة بداخلك أوّلا

أمسك أبوك عن المشى وتوقّفت بجواره، ماذا يريد من مدافن الأجداد؟ أن يلقنّك درسا أخلاقيّا عن عظة الموت؟ البحث عن الأسلاف لا يقود فى الغالب إلى شيء، الآن، يبدو نشاطك الذهنى بطيئا، الأفكار تفسد وهى فى طريقها إليك، ركام من الصور المخزونة، لا يجمعها إلا ارتباطات تأتيك بشكل غير منتظم، ليست طازجة، لكنّها لحظتك على أية حال ويجب عليك الدفاع عنها، ولو بدون طاقة تعبيريّة، فرفيقك لا يتحدّث، ولذا، كنت تحاول طوال الوقت أن تبحث عن مادة كلاميّة أخرى بديلا عن الحروف

وتراكيب الجُمل، مادة أخّاذة، تبثّها وأنت مغلق العينين، والفم، لسانك طريح حلقك، تجتهد فى تحويل صوتك لفكرة، مع احتفاظك بالنسخة الأصليّة لجوهر فكرتك فى دماغك، سيكون ذلك مجهودا مستمرا لا نهاية له، على آية حال، يمكنك تكرار التجربة من جديد، ولكن بشكل مختلف.

(6)

•

كنتُ أتفتت داخليًا وأكاد أهوى من فرط تغفيلى، أفكّر طوال الوقت فى المناوشات التى لم تنقطع لسرقة الرأس من حوذتى، كان الليل يتسحّب ويحبسنى أسيرا لنفسى وتخميناتى، من يكون هذا الرجل الطيف الذى خطف الرأس منّى وأعطانى بدلا منه بيضة؟ تأملتُ البيضة الحجريّة مرّة أخرى لعلّى أُدبّر معلومة تفيدنى وتخرجنى من خيبتى. كانت البيضة تُعلن عن كلمة واحدة مكتوبة من جانبها الظاهر "الله" ومن جانبها المسحوب كُتِبتْ كلمة واحدة ممسوح أغلبها ولا يظهر منها إلاّ الألف واللام فقط. رقدتْ البيضة فى كفّى وجرفنى منحدر لم أتبيّن طبيعته من شدّة الظلام، سقطت فى مكان أشبه بوادٍ، لا زرع فيه ولا بشر، وسمعتُ أصواتا كسقوط مياه تنحدر من أعلى، غصتُ حتى ركبتىّ فى سائل أشبه بزيت، بعد قليل سمعتُ أصواتا متداخلة، كنتُ أحاول صحصحة ذاكرتى وإنعاش دماغى قدر استطاعتى، فى هذه الأثناء تعمّدتُ أن أقرص نفسى مرات لأتأكد أنّى فى صحو ومسئول عن تصرّفاتى، أشعر الآن بأن عقلى كالعجين، تفتتْ شذراته ولم يعد لخطوطه لون ولا شكل، كأن أفكارى تعرّضتْ لقعر صندوق ملىء بالمرايا الصغيرة، بداخله يمكن للجدول أن يكون

نهرا ويمكن للحصوة أن تصير جبلا ويمكن للعطسة أن تُحدث زلزالا كذلك رأيتُ الرجل صاحب اللحية البيضاء يتكاثر فى لمح البصر، حفّز من هم على شاكلته لكى يطاردونى، وبدون تفكير نفذوا الأوامر الصادرة من كوخ أبيض بعيد، ماذا يريدون منّى؟ لقد غفّلنى الرجل وحصل على الرأس، أين ذهب به؟ هل رمى رأس أبى فى هذه البركة الزيتيّة؟

تحرك الزيت بلا صوت، بصمت مطبق، ولكن حناجرهم أصدرت زمجرة:

– أيّها الجاحد، فيم كنتَ تستخدم الرأس؟

–

– لا ترد. أقل شيء يمكن أن تفعله ألا ترد. ولكن نحن سنرد.

اقتربت مجموعة كبيرة من رجال أقوياء، يحملون رجلا على محفّة من الأغصان واللباد، ولّما أصبحوا بجوارى قال متقدّم الموكب:

– وصل كبيرنا.

نزل من فوق المحفّة رجل لا تظهر عليه علامات الوجاهة، قصير وله شارب محنّط فوق شفّته، منكباه سمينان، وجلبابه نظيف. اقترب وهو يضيّق عينيه فى تفحّص مريب، ثم أمر مَن كانوا يحملونه بأن يوضّحوا له لونى، اقترب منّى الرجل الذى تلقّى الأوامر، كاد يدخل فى حلقى، لفّ حولى لفّة دائريّة كاملة، كمن يعاين عبدا فى العصور الوسطى، قال وهو يرفع يده أمام وجهه كدرع:

– أحمر لونه أحمر

أزاح الرجل المحمول الرجل المأمور وأطال إلىّ النظر، تفحّص وزغر وقال لمن حوله:

– حسنا. فهو ليس أبيض.

ثم خصّنى وهو يردف:

– ليلتك طيّبة. فأنا لا يمكننى أن أرى إلاّ لونين فقط. الأبيض والأحمر.

كانوا كلّهم متشابهون حد التطابق، تميّزهم ابتسامة هازئة من كل شيء، تصوّرتُ أنهم من نسل شخص واحد، قفزوا بالقرب منّى، لم يعد يفصلنا سوى خطوات قليلة، لم أعرف ماذا يريدون، كانوا كالعملة التى ولّى زمنها، يلمعون فى الظلام كأسماك فضّية طافية. حَطّ طائر غريب الشكل على مؤخّرة أحدهم وظل ينقرها قبل أن يفيق الرجل ويهشّ عليه، ولّما طار قال أحدهم:

– اثبت يا رجل.

انتبه صاحبهم منقور المؤخّرة وظل يصيح:

– لو حُزْتَ هذا الرأس مرّة أخرى سنطبّق عليك العقوبات المنصوصة كما هى. هه. بحذافيرها.

أمرهم كبيرهم بالاتجاه نحوى ففعلوا، نظرتُ فى كفّى فلم أجد إلاّ البيضة الحجريّة، قلّبتها على كل الجوانب وهوشّتهم بها مرارا، كانوا يرمشون بخوف غريزى ولكنهم يتبعوننى بإصرار غريب، وأنا أغوص

فى السائل اللزج كلّما انزلقت إلى المنحدر، غطّى الزيت الأسود مساحات كبيرة من جسدى حتّى وصل لصرّتى، بعد خطوات قليلة فى اتجاه الهروب منهم وصل السائل لصدرى، وهُنا شعرتُ بأن نَفَسى يغيب ويصعب علىّ سحب الشهيق، أحسستُ بأن إناء معدنيّا ثقيلا ينكبس فوق رأسى، قَلّ ركضى حتّى خَفَتَ تماما وتسمّرتُ فى مكانى، فاقتربوا منّى وكانوا كثرا، نظروا عاليا إلى السماء، بينما الأرض حافلة بعجائب الأشياء. بركة لزجة بها سائل أسود. حولها أناس لا أعرف ماذا يريدون منّى. وعلى مدد الشوف نظرتُ، وقلت:

- أرى أصدافا وأشجارا وأزهارا وكواكب سيّارة ألمح منها ذيولا رماديّة بارقة.

نظر أحدهم إلىّ وقال:

- أشجار وأزهار. يبدو أنك حُزت الرأس لمدّة طويلة حتّى أصبح ذلك يشكل خطورة كبيرة عليك؟

- ماذا تقصد؟

- أنا لا أسألك فى صهر المعادن حتى تتغابى.

وقبل أن أشغل نفسى بالبحث عن إجابة كانت الأرض تنسحب من تحت قدمى ببطء، ومُحدّثى يتقدّم موكبه ناحيتى، انقلبت الوجوه وصارت الرءوس لأسفل، وصرتُ أبحث عن لغة أحدّثهم بها، كان عقلى يحتاج إلى طاقة كبيرة ليستوعب ما يحدث من حولى. رأيتُ الرجل صاحب اللحية البيضاء منتشيا، والناس فى الأسفل ينتظرون

أى رد فعل من قائدهم، كنتُ أغوص فى السائل الأسود، لم يعد بإمكانى التحكّم فى قدمى نهائيًا، وكان جسدى يتزلق برفق، حتّى شعرتُ به يسبح، يطير، يميل موروبا حتى اختلطت أشكال الناس وأحجامهم أمامى، كان من الصعب علىّ تحديد أى هيئة أو حركة بشكل دقيق، فى هذه الأثناء كان السائل قد وصل لعنقى، لم يبق طافيا منّى إلاّ الرأس، اقتربوا منّى وأوثقونى بالحبال، وهُنا أشار الرجل صاحب اللحية البيضاء لمريديه بإصبعيه وقال:

- اتركوا ما اختفى منه. أنا لا أريد غير هذا.

وانتصبت ذراعه نحو رأسى.

* * *

أنت لم تستيقظ بعد، لم يُرد إليك وعيك بشكل كامل، تتحسس رأسك وتهرش بين فخذيك، عينك كأنّها قطعة رصاص مصبوبة فى تجويف جمجمتك، تشعر بعين واحدة، جافة كأنّها مُشرّبة بالجبس، وبطنك، بطنك متجمد ومكتوم كمادة تئن تحت كثافة ضاغطة، ورأسك ثقيل كحجر، هل أصبحت بناء فى صرح ما، أنت لم تستيقظ بعد، أنت فى غيبوبة مؤقتة، مؤقتة، ستتعافى بعدها، ربما، لا تشعر بوجودك، أنت مجرد ربما، لك كف واحدة تُروّح الهواء، كف فى نفس اتجاه العين، مشطور أنت، تختلط فى أذنك الأصوات، أذن واحدة أيضا، لا يمكنك تمييز الهسهسة القريبة من الصراخ البعيد، وضوء كأنّه قشر سمك زجاجى يتناثر فى فضاء الغرفة، أى غرفة؟ بالكاد رفعت جفنا واحدا، ولم تر شيئا، فخذاك باردان، وما بينهما

ميت، مات وحده، أما مخك، فهو خامل بأفكاره البعيدة، تتلاحق فيه التراكيب والجُمل، لو فقط فى السابق كتبت بعض الملاحظات أثناء وجود رأسك، عندما كانت معك أمّك وجدتك، لكنت قد استعنت بهذه المؤونة الآن، لكانت قد أفادتك فى هذه المتاهة، ولكنّك لم تكتب شيئا، لسبب ما لم تكتب، ويمكنك أن تموت دون معرفة ما مررت به أثناء حياتك، حياتك، ظاهرها واقعى وجوهرها تخيلى، تستعيد طفولتك الضائعة وأنت تمشى بجوار أبيك، تستعيد، نعم تستعيد، عندما كنت تجلس بين جدتك وأمك، بدون أب، مللت من كثرة الكلام، والآن وصلت بسبب الصمت حد الجنون، تشبه الدنيا فى عينك حزمة من قش جاف، لن يشبعك مضغه بقدر ما تخزك أعواده المدببة.

بخيال مجازى، يمكن أن تشطب وجود أبيك، تلغيه من حياتك مرّة أخرى، فهو بلا فائدة حقيقية تذكر، مجرّد جسد، لا يهمّه أن تبحث عن أناقة أسلوبيّة فى تعبيرك وأنت تخاطبه، ولا يعنيه كذلك لو أن الفكرة الأصليّة لكلامك تلطّخت بما ليس فيها، لماذا تحاول الآن، وأنت فى هذه الحال أن تنمّق ما له علاقة بالماضى، ذهبتْ المرحلة العمريّة ولم يعد من السهل تحسسها، لم تعد اللغة مترابطة، حيث الكلمات هى مجرد كلمات. تحاول تحليل الوقائع كما تكمن فى ذهنك، لا تركض خلف الجُمَل لتعديل مسارها، تستدعيها كما هى، تستدعى واقعك كما حدث فى الماضى، وتضعه كما هو فى زمن آخر، ولا تلهث، فساعتك أم عقارب كفيلة وحدها بإنجاز المهمّة.

(7)

بعد أن فكّوا وثاقي لم أجد حولي أى سوائل لزجة، هُيئ لى بأنّي ف مكان أعرفه، بيت قديم له فى دماغي ذكرى حُلوة ورائحة مميّزة، ولكنه بيت عاد إلى الوراء كثيرا، تنازلتْ محارته عنه، وكذلك دهانه، وديكوراته، كان هُنا كومودينو، يوضع فوقه، نعم يوضع فوقه طعام وأدوية، وكانت لى جَدّة، نعم جدّة، أُم أمّي، أين ذهبتا؟ لماذا أنا مُنصاع لهولاء الناس الذين يقهروننى بشتّى الوسائل، وزعيمهم لا يزال واقفا عند كوخه العالى، يأمرهم وينساقون بلا تفكير، لا يردّون له مطلبا، ولا يراجعونه فيما يقول، حتى لو قال ريّان يا فجل، لقد قلت مثلا شعبيا، تقريبا مثلا شعبيا، ماذا يعنى مثل، وما المقصود بشعبي؟ وهل هذا الفجل شيئا يؤكل؟

فرشتُ من حولي حروفي، رتّبتها من جديد بما يناسب الكامن فى نفسي، بحثتُ عن ارتباطات جاهزة فى دماغي وفشلت، لم أحصل على أيّة معلومات، كل ما عشته قبل البوّابة، وكأننى بدأتُ كل شيء على عتبتها. التفّ حولي أشخاص أعتقد بأنّي رأيتهم من قبل. وهُيئ لى بأنّه لم تزل لى أذن أسمع بها ما يقولون.

أمسك أحدهم برقبة عِجل أحمر سليم البنية وذبحه، وقال الرجل صاحب اللحية البيضاء أنّه لا يحب من اللحوم إلاّ الرءوس، فقذفوا له

بفرحة مجنونة رأس العجل الذى لا يزال ينبض بالحركة وعنقه يقطر بنسائل الدم.

بعد قليل هُيئ لى بأن أنفى نبتت له فتحتان، وأول ما تسلل إليهما رائحة كافور وبرسيم مهروس، ولَمّا أيقنتُ بأنّى أرى تجوّلت من حولى بهائم كثيرة، كانت تمضغ البرسيم الموفور تلالا خضراء على مدد الشوف، ورأيتُ رجلا يجز بإخلاص عود كافور كبيرا بمنشار مزدوجْ المقبض، ويساعده فى ذلك شخص آخر. أحسستُ بطرقعة فى عظامى توحى بأنّى نمتُ مئة عام، نوما مليئا بالأحلام المتفرّقة، ولكن هذا ما كنتُ أظنّه قبل أن تختفى البهائم وعود الكافور المجذوذ.

ظهر أمامى وجه رأيته من قبل وارتحتُ إليّه، خرجتْ من كارت أبيض واسود صغير فى حجم الكف، طلّت نفس الملامح تهيم من حولى، أمّى، اقتربتْ وهى تحمل رأس أبى وتقدمه إلىّ، وعندما مددتُ يدى دفعتْ الرأس حتّى أقترب، قد خفّ الظلام عندما بانت ملامح الرأس. لم تنطق أمّى بكلمة، ولم تحاول، كانت مبتسمة طوال الوقت، وكأنّها حصلتْ على هديّة مهمّة ممتدّة الأثر والمفعول، وعندما لمست يدى رأس أبى المستكين اقترب منّى طفل لا أعرفه، أشارت أمّى إليه ثم اختفت، مددتُ يدى فتجاوب الطفل ومد يده هو الآخر، لَمّا تشابكتْ الأيادى وعاد الرأس لحوذتى وجدتُ قدمى تمشى فى اتجاه الطفل، كان يُشبهنى وأنا صغير إلى حد كبير، ومثلى يلبس ساعة قديمة بعقارب، ولكنها صغيرة وتناسب يد طفل، عقاربها متأخّرة قليلا عن ساعتى، أين ساعتى؟ لا بد فقدتها فى بركة السائل اللزج. أو فى معركة

صاحب الجمل، هل دخلتُ فى معركة معه من الأصل؟ كل ما أتذكره أن صاحب الجمل كان ينقل معلومات لمدير المستشفى والحرّاس مقابل أجر كبير، وعندما عرفتُ ذلك تمنّيتُ أن أحطم رأسه وأجعل لحيته البيضاء تشخب من دمه، ولكنّى لا أتذكّر، هل وقف الأمر عند التمنّى أم أنّى تجاوزتُ ذلك وفعلتُ ما أتمنّاه؟

لّما نشطت خطواتى وأنا أسحب معى رفيقى، الطفل، رأيتهم علينا يهجمون، طلوع النهار أظهر ملامحهم على حقيقتها، كانوا بشرا مثلى ومثل الطفل تماما، ملامحهم ثابتة على قسوتها، وفجأة قرروا مطاردتنا حتّى النفس الأخير، قفزتُ والطفل فى يدى فوق كل ما قابلنا، أكداس الركام والجثث الملقاة والأشجار المقروطة، كان الطفل خفيفا كالريشة، شعرتُ بأنّى لا أصطحب إلاّ نفسى، لّما أسرعنا الخُطى سبقناهم بمسافات شاسعة حتى اختفوا عن أنظارنا، رأيتُ المدينة أمامى خامدة، كأن كوكبا سقط فوق كل كائناتها مرّة واحدة، أو جرفتها أحداث قرن كامل من التناحر.

أخذنى الطفل من يدى، سحبنى فوق الركام والخراب، كانت الجثث تئن تحت وطء أقدامنا، تتقوّس عظامها وتطرقع. فسألته:

– إلى أين نحن ذاهبان؟

– إلى البستان.

–

– صدقنى. خلف كل هذا الدمار بستان.

انسقتُ خلف خطواته، عبرتُ فوق الجثث، كان الطفل خفيفا جدا، فى وزن ساعة قديمة بعقارب، لم تشعر الأبدان الهامدة تحت الأرض بمرور كائن فوقها، ولم يكن شيء يجعلنى أصدّق أن هناك بستانا حقيقيا إلا ورقة شجر كانت عالقة فوق كتفه.

* * *

وترى أمك مجهدة كريشة ضربتها الريح، وقفتْ صامتة لفترة، تمسك فى يدها صبيا صغيرا يشبهك، أعطتك إيّاه ثم قالت وهى تشير إليه:

- لكل مدينة قمر غير الذى فى السماء.

اقتربوا منكما، لحاهم تلمع علي ضوء القمر، شبرا أو يزيد وبلون قشرة الرمّان، قال أحدهم وهو يملّس على لحيته:

- ألا تستحى؟ تأتى بأمك إلى هُنا، بنفساك. أمك. إلى هُنا

اقتربتْ منّك أمّك وقالت بصوت مرتفع:

لا تصدقهم. إذا ألح شخص ما بشدّة على رفض شيء فاعلم أنه يريده.

ثم وضعتْ يدها على الطفل الصغير الذى يشبهك وقالت:

هم لا يريدون القمر. هم يريدون قمرهم.

انعكس ضوء القمر على الرجل فزاد اللون الفضّى من احتقان ملامحه، صرير أسنانه يكاد يُسمع، لو وضع بين فكّيه الآن زلطة

لجرشها من شدّة الغيظ، لا تعلم على وجه الدقّة ما الذى أثاره بهذا الشكل، ومن حوله يلتف مريدوه، متجهمين استعدادا لفتك قريب، أعينهم جاحظة وبعيدة عن محاجرها، على وجوههم تقطيبة كأنهم يأكلون حشرات. تقدّم رجل يتدلّى كرشه أمامه شبرين، هاج جميع مريديه وأخذوا يسبّون أمّك بصوت غليظ مصطنع، حجزهم كبيرهم بيديه. فأمسكتْ أمّك بيد الطفل الذى يشبهك وانصرفتْ، حاول الرجل اللحاق بها فلم يتمكّن، ساعده مريدوه فلم تسعفهم حيلهم ولا أجسادهم الثقيلة. بسرعة غير ملموحة، سلّمتْك أمك ذراع الطفل، وقفتَ وأنت تحدّق بقوّة محاولا الوصول لرؤية كاملة، كنت تشبه فى وقفتك حرف أ، وعندما وقف الطفل الصغير بجوارك أصبحتما كـــ أ ولام، رفعت يدك لتحيى أمّك فأضيفت لام أخرى، أمّا أمك فقد تماهت مع ضوء القمر حتى أصبحتْ كحرف هاء مربوطة تُتمم المشهد.

شكر واجب لـ

عماد العادلي.

إبراهيم محمد علي.

ندى عمرو.

عن الكاتب

- عمرو على العادلى

- صدر له:

(1) خبز أسود (مجموعة قصصية) دار ملامح للنشر **2008**

(2) جوابات للسما (مجموعة قصصية) دار ملامح للنشر **2009**

(3) فيل يتدرب على الإنسانية (كتاب ساخر) دار ملامح للنشر **2010**

(4) إغواء يوسف (رواية) دار ميريت **2011**

(5) حكاية يوسف إدريس (مجموعة قصصية) سلسلة كتابات جديدة بالهيئة العامة الكتاب **2012**

(6) كتالوج شندلر (رواية) دار نهضة مصر **2013**

- للتواصل:

Amr_ali_adly@yahoo.com

رواية فاتنة لكاتب موهوب، تستكشف -من خلال عالم كافكاوي- أعماق الوجدان الإنساني الموروث..

صنع الله ابراهيم

عبر أكثر من مستوى للسرد، تتدفق هذه الرواية، لتصوغ عالما خاصا، يطرحه عمرو العادلي، ويقدم من خلاله إضافة إبداعية جديدة، تستكمل ما أضافه خلال أعماله القصصية والروائية السابقة، خصوصا روايته الجميلة "كتالوج شندلر."

د. حسين حمودة

الزيارة

أكملت بحثي في الملامح، ربما أجد عينين يطل منهما بريق يشبهني.. كانت أعين الراقدين متعبة ومنتفخة من تكرار النعاس، يلتصقون بأسرّتهم كأنهم أصبحوا جزءًا منها، يتأوهون كلهم باستثناء شخص واحد، رجل له بشرة شاحبة، بلون الصوف الطبيعي، يكبس في رأسه طرطورا مقلّما من القطن، يندفس ولا يظهر منه إلا عينان صغيرتان يتوسطهما أنف كبير نسبيا؛ لا يمكنني تخيّله أبي. حاولت الانتقاء قدر استطاعتي، كنت أجنح لأختار الصنف الممتاز، فعندما يكون لدينا الاختيار، نرى دائما أننا نستحق الأفضل.

تصميم احمد مراد



دار اكتب للنشر والتوزيع